موسم العودة من الشمال

رواية

مصطفى عمري

صيد الخاطر
للنشر والتوزيع

المدير العام : أحمد فؤاد

العنـــــــوان:	موسم العودة من الشمال
اسـم الكاتـــب:	مصطفى عمري علوي
إخـــراج داخـــلي:	مى مختار
تصـميم الغـــلاف:	برديس عز
الطبعـــــة الأولى:	2025
رقــم الإيـــداع:	2025/5019
الترقـيم الــدولي:	(ISBN): 978-977-975-909-2

• للتواصـــــل: +201090767919
• إدارة التوزيــع : +201009591771
• العنـــوان: 72 شارع جامعة الدول العربية - المهندسين
• الموقع الالكتروني: www.booksbooking.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الـــدار

جميع حقوق © طبع ونشر هذا الكتاب محفوظة لـــدى دار صيد الخاطـــر للنشر والتوزيــــع والمؤلــــف وأي محاولة لطباعة الكتاب بـــأي شكل من الأشكال دون الرجوع إلى الدار والمؤلف يعرض صاحبه للمساءلة القانونية

موسم العودة
من الشمال

الطبعة الأولى

رواية للكاتب

مصطفى عمري علوي

2025

الفصل الأول

قالت العرب قديما:
"عِندَ الصَّبَاحِ يُحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى"

توقفت الحافلة على حافة رصيف الشارع، وبدأ مساعد السائق يصيح بصوت عال، منبها الغافين من الركاب إلى نقطة التوقف الأولى بالأحياء الشمالية للمدينة:

- يلاَّه، يلاَّه..!! بوزكري ولاتوراي..!!

يزداد حنقه أكثر فأكثر، لكنه كظم انفعاله الذي دام لليلة مؤرقة قضاها على متن حافلة مهترئة يدوّي من محركها صوت يشبه هدير الرعد يصم الآذان، قطعت مسافة سبع ساعات من الجنوب حتى مدينة أزرو، وبعدها استقل حافلة أخرى في اتجاه مدينة مكناس، كانت هذه الأخيرة ليست

كالسابقة ولكن طاقمها ككل أطقم حافلات الوطن يظنون أنهم يقلّون المسافرين بالمجان، فتراهم لا يلقون بالا لأحد من الركاب ولا يأبهون لرجاء مضطر أو مُزحَم[1]، دائما متشنجين وعلى عجل من سيرهم...

يعود نفس الصوت يصيح من الخلف:

- شكون اللّي عندو الحوايج؟ .. أرا الصندوق!![2]

ينهض من مكانه ويستدير في اتجاه السائق، فيقول بصوت محشرج يكاد نفسه لا يسمع ما يقول؛ فلا يزال بأذنيه صمم من جرّاء صخب الليلة الماضية:

- عندي الرحيل ثقيل.. زيد بيا لرونبوان ديال لاتوراي[3]...

يسعل ثم يحاول أن يرفع صوته لكن بدون جدوى، يبدو أن حباله الصوتية تمنعه هي الأخرى أن يتلفظ بكلمات قد تؤدي إلى مشادَّة كلامية، وربما قد يقذف بلكمة أو ضربة بعصا غليظة، فهؤلاء الأجناس من البشر يُشغّلون من طرف أرباب الحافلات للتدخل العنيف متى اقتضى الأمر ذلك..

[1] -مُزحَم: عندما يدافع المرء حاجته الماسة إلى دخول المرحاض لأنه غير موجود أو بعيد.
[2] -"من لديه أمتعة بصندوق الحافلة؟ .. أفتح الصندوق!!"
[3] -"لدي أمتعة ثقيلة.. أوصلني إلى ملتقى الشارع في لاتوراي"
-لاتوراي: تسمية فرنسية لحي موروث عن حقبة الاستعمار الفرنسي بمدينة مكناس

سمعت سيدة ما قال الشاب ثم نقلته إلى السائق بلكنة أمازيغية، فأجاب السائق:

-راهوم تيكونو تمّاك ما تنوقفوش في ديك البلاصة..!!

يحاول رجل بالقرب منه توضيح جواب السائق المقتضب؛ فالمغاربة يصبحون أكثر تعاطفا مع بعضهم البعض في رحلة السفر، ولكن سرعان ما يختفي هذا الإحساس بعد انتهاء الرحلة ويترجَّل الكل على رصيف المحطة، آنذاك يصبح الكل يحترز من الكل، فهذه منطقة غير مأمونة وقد يتعرض فيها المرء للسرقة والنصب وغيره من الأذى.. يشرح الرجل كلام السائق المبني للمجهول:

- البوليس!! تيكونو رسمي في الكروازما[1]..!!

نظر الشاب في وجه الرجل بلطف، محاولا أن يصطنع ابتسامة صفراء؛ ليس لديه حلا آخر سوى النزول في هذا الموضع وإلا سيبتعد أكثر عن وجهته وعندها تلزمه مصاريف إضافية لاستئجار عربة نقل البضائع لتقلَّه ومتاعه إلى الغرفة التي اكتراها بأحد الأحياء المجاورة خلال فترة التسجيل قبل شهر.

[1] -كروازما: كلمة فرنسية تعني تقاطع الطرق

يصعد المساعد مجدّدا ثم يصيح:

- واش مزال شي واحد قبل ما نسد الكوفر[1]؟

تجيبه سيدة وهي منحنية لتشدّ رضيعها إلى ظهرها:

- عاين أخويا الله يرحم والديك...

ينتظر واقفا في الممر حتى تنهي السيدة شدَّ وليدها إلى ظهرها بحمّالة وتأخذ أغراضها من أسفل المقعد والرف في الأعلى. تتحرك المرأة صوب المخرج الخلفي، فيتعقبها بتريث.. يخرج لهما المساعد أغراضهما على عجل. بدأ يفحص أمتعته بنظرة خاطفة خشية أن ينسى شيئا منها في صندوق الحافلة. تبدو عيناه متعبتان ومنتفختان من خلف نظارات سميكة مضبّبة، أعيته ليلة كاملة بتثبيتها بين الفينة والأخرى بأصابعه كلما انزلقت من على أنفه من شدّة التعرّق. يغلق باب صندوق الأمتعة ويصيح المساعد:

- ورول.. وروول[2] ..!!

تنصرف الحافلة لتوّها، ولكنه ظلّ على حافة الرصيف يتنّفس بشدّة لعله يسترجع توازنه وخامة صوته الطبيعية،

[1] -الكوفر: كلمة فرنسية تعني صندوق الحافلة

[2] - روول: كلمة فرنسية تعني هيّا سر أو انطلق.

ملتفتا من حوله كي يتأكّد أن كل أغراضه على الرصيف لا ينقص منها شيء.. تتوقف سيارة أجرة بلون أزرق فاتح، فتقلُّ المرأة وطفلها ثم تغادر المكان. يلتفت إلى المحيط.. يتعالى صخب الشارع؛ سيارات أجرة وحافلات وسيارات وشاحنات تغدو وتروح في كلا الاتجاهين. أحس بخوف وبفرح في الآن نفسه؛ ينبعث صوت منتشيا بداخله.. "هذا أول صباح بمكناس.. 'مكة والناس'..!!" بهذه التسمية كان من قبله من الطلبة الوافدين يلقبون المدينة الإسماعلية مكناس. لم يعرف لماذا انتابه هذا الإحساس؟ لربما هو إحساس يحمل نبوءةً لبعض ما سيأتي في القادم من أيامه بهذه المدينة...

يستفيق من غفوته، ينظر إلى أغراضه.. فراش ملفوف محكم الوثاق وحقيبتان وثلاث علب كارطون كبيرة الحجم مملؤة بمؤونة تكفيه لشهرين قادمين؛ بها قطاني وزيت زيتون وتمر وشاي رفيع وكؤوس وبراد وطنجرة وكل قطع أواني المطبخ، بالإضافة إلى رزمة من الكتب والمجلات.. يتساءل مع نفسه: "ما هذا كله 'جْهَازْ عروس'؟؟ ليكن الأمر كذلك!! فربما مكناس هي عروستي، من يدري؟".

بدأ يفكر.."لا يمكن أن تقلني أية سيارة أجرة بهذا "الدبش"[1] لابد من أن أستأجر عربة نقل البضائع". مكث في مكانه ينتظر وينظر يمنة ويسرة؛ ما تزال الحركة تدب رويدا رويدا في الشارع مع شروق أول أشعة الشمس.. فجأة رمق إحداها آتية من الجهة المعاكسة للجهة التي يقف بها وأشار إليها، خفّف السائق السرعة ثم أشار بيده إليه بحركة لولبية يخبره أنه سيلفّ في الملتقى ليغير اتجاهه، وبعد لحظة توقّف بجانبه ثم نزل السائق وسأله عن وجهته:

- فين غادي تمشي؟

- سيدي بوزكري

بدأ الاثنان يُحمِّلان الأغراض على الشاحنة الصغيرة "الهوندا" ثم ركبا وانطلقا إلى الوجهة.. نقر جرس البيت وتريّث هنيهة. تطل سيدة من النافذة وتسأل:

- شكون..؟

لم تنتظر الجواب فقد تذكّرته تجيب على عجل:

- صبر شويا آولدي هانا هابطة...

[1] - الدبش: الأمتعة الكثيرة

تغيب المرأة للحظات ويسمعها تقول ربما لشخص آخر في الداخل:

- راه جا الطالب الصحراوي اللّي كرا الفوق...

****

****

مكناس صباحا، أكتوبر 1998...

"فَلاَسْفِي دَهْقَانِي رَبَاوْنِي الكْيَاسْ
مَعْتَبْرْ قَارِي شِيخِي حْكِيمْ نَاجْمْ
القْضَا صَرْفَتْ احْكَامُه صَرْتْ لاَ بَاسْ
حَمْدَتْ رَبِي وشْكُرْتُه بَاسْطْ النْعَامْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

يرن المنبّه.. يمدّ يده صوبه ثم يوقفه، يزيح الغطاء جانبا ثم ينهض من مضجعه. الساعة تشير إلى السابعة صباحا؛ يفتح الحقيبة ويأخذ فوطة ثم يخرج من غرفته ويتّجه صوب الحمّام، يلحظ أن أحدا ما يستعمله، ينتظر قليلا أمام نافذة كبيرة في الفناء، يخرج شاب طويل القامة يقتسم معه السكن في غرفة ثانية بنفس الطابق، يتبادلان التحية...

أنهى الفطور على عجل، لبس بدلته ثم أغلق باب غرفته ونزل في السلم بسرعة. قبل أن يصل إلى كلية الآداب، لاحظ أن الطريق يسلكها نفير من الشباب فرادى ومثنى وجماعات مرتدين بدلات أنيقة ويمسكون بمحافظ وبعضهم

متأبطا كتبا وملفات.. اقترب من بوابة الكلية وقد أدهشته من جديد البوابة الضخمة ذات الشكل المقوس التي تخترق سور المدينة الإسماعيلة. هذا السور المعجزة الذي كلما مرّ المرء بمحاذاته إلاّ وأخذته رهبة وهيبة من السلطان الأعظم مولاي إسماعيل، الذي شيّد معلمة عمرانية مغربية جديرة بأن تنضاف إلى عجائب الدنيا السبع لتكمل ثامنتها...

قبل أن يلج عتبة البوابة، تذكّر ما كانت توصيه به جدّته المرأة المسنّة الورعة: "..احرص يا بني على أن تكون خطوتك الأولى عند الدخول إلى المدرسة بالرجل اليمنى، لأنها فأل يُمن وبركة وبها ستمخر عباب النجاح في المستقبل، وإذا أردت أن تجتاز الامتحان أو "تْفُوَّتْ الامتحان" كما تقول بالعامية، فضع قطعة سكّر في جيبك قبل دخولك إلى مكان الامتحان..!!". كان يستمع إلى كلام جدّته العجوز بإمعان ولكنه كان دائما يعي أنه مجرد كلام وأعراف ومعتقدات شعبية لا ينتبه لها ولا يحفظها في ذاكرته في الغالب.

لا يدري كيف تذَّكر كلام الجدّة في هذه اللحظة أمام دهشته من البوابة الضخمة؟ انضم إلى سيل الطلبة والطالبات الوافدين على الكلية، ولكنه بمجرد أن وصل إلى

عتبة البوابة حتى خطى بيُمناه وتبسّم ضاحكا وقال في نفسه: "هذه العتبة يا مَّالاَلَّة بسمك مترين إلاّ قليلا!! فهي تحتاج ثلاث أو أربع خطوات لأتجاوزها..!! كيف أعرف بما انتهيت به منها هل الرجل اليمنى أم اليسرى؟".

كانت الدراسة قد ابتدأت منذ مدة وكان فضاء الكلية يعجُّ بالطلبة في كل ركن وممر وباحة. اتّجه يبحث عن مكان شبابيك استعمالات الزمن.. اقترب من أحد الطلبة وسأله عن المكان المخصص لذلك، فأخبره أن كل شعبة تعلّق جداول الزمن الخاصة بها في شبابيك أجنحتها؛ سأله عن الشُّعبة التي يبحث عنها؛ فأجابه:

- أدب إنجليزي...

أشار بأصبعه إلى الاتجاه الذي يؤدي إلى قسم الأدب الإنجليزي، شكره بأدب ثم اتجه عبر الممر الطويل.. كان فضاء الكلية فسيحا وجميلا تتخلّله باحات خضراء في كل اتجاه؛ أشجار متناثرة بانتظام هنا وهناك وشجيرات مشذَّبة في اتساق على جنبات الممرات الطويلة التي تنتهي إمّا عند باحات تنفتح على أجنحة تضم مجموعة من القاعات ذات عمران متسق أو تنفتح على باحات تتناثر بها مقاعد إسمنتية مستطيلة يجلس عليها الطلبة خلال فسحات الاستراحة التي

تتوسط الحصص والمحاضرات أو لأخذ قسط من دفء الشمس إبّان الفصول الباردة، أو تنتهي إلى مُدرَّج كبير يتسع لحشود غفيرة من الطلبة.. كان مشهد هذه المُدرَّجات الغائرة يُحدث في نفسه دهشة عجيبة داخل هذا الفضاء الجديد.. إنه الحرم الجامعي يا صديقي!!

لم يتوقّف عن التجوال طيلة الصبيحة.. قادته رجلاه إلى أكثر من مرفق من مرافق الكلية؛ فهذه مكتبة فسيحة تعجّ بطلبة يجلسون إلى طاولات كبيرة يطالعون كتبا ويحرّرون مقالات أو تقارير في شبه صمت، وذلك مقصف اتّخذ موقعا مُتحفِّظا في الحرم الجامعي يحتوي باحة مؤثثة بكراسي وطاولات اتّخذها طلبة آخرين لاستدراك وجبة فطور فات أوانه في البيت أو تناول وجبات خفيفة وبعضهم الأخر تحلّق في مجموعات صغيرة يدردشون، منتشين بسجائر بين أصابعهم وهم يأخذون استراحة قهوة، في انتظار استئناف حصة جديدة أو الشروع في محاضرة ثانية أو إتمام بحثا في المكتبة...

ارتشف جليل آخر رشفة من فنجانه، فقام مستعجلا من مكانه متجها إلى المقصف لإعادة الفنجان الفارغ؛ ثم اتّجه نحو شبّاك جداول الحصص ليطلع على المعلومات

المتعلقة بالفوج المُسجَّل به وبتوقيت المحاضرات.. وجد بعض الطلبة الجدد مثله ما يزالون محتشدين أمام الشبّاك يبحثون عن أسمائهم في اللوائح المعلقة. انتظر دوره للبحث ثم اقترب منها وبدأ يتفحَّصُها.. يقرأ: "الشعبة: الأدب الإنجليزي – الموسم 1999/1998– السنة الأولى"، يتابع تفحّص اللوائح واحدة تلو أخرى، يرمق اسمه مكتوب بالفرنسية: "Abdeljalil Sahroui - group 3". ينتقل برشاقة وزهو إلى الشبّاك الأخر ليسجّل توقيت المحاضرات الخاصة بفوجه...

كان يومه الأربعاء من الأسبوع الثالث من أكتوبر، نظر في ساعة يده؛ وقد مضى من الساعة العاشرة رِدحًا، وانطلقت الحصّة كذلك منذ قليل. ذهب يبحث عن الجناح ورقم القاعة "الخنساء رقم 1".. يتحسّس باب القاعة ليتأكد هل من أحد بداخلها، يسمع كلام الأستاذ فيدرك أن المحاضرة سارية بالداخل. يضع يده على المقبض ويفتح الباب ثم يدخل؛ لكنه هذه المرّة نسى وصيّة جدّته؛ أن يخطو عتبة القاعة برجله اليمنى، لا يدري بماذا ابتدأ خطوته الأولى؟ هل بيُمناه أم بيُسراه؟ لكي يختبر مدى صدق كلام العجوز من

عدمه، وهي التي تبتعد عنه الآن بمئات الكيلومترات بأحد القصور[1] البعيدة في الجنوب الشرقي.

دخل جليل إلى القاعة مرتبكا، فتوقّف الأستاذ عن الحديث، مغيِّرا اتجاه بصره نحوه.. كان رجلا متوسط القامة يضع نظارات طبية على عينيه وله شارب كث. نظر جليل إلى الأستاذ وإلى من بالقاعة بلمحة بصر واحدة، فلاحظ أنها غاصّة عن آخرها بالطلبة.. أحسّ بادئ لأمر برهبة الحديث أمام العموم، فتذكّر في تلك اللحظة أن يلقي التحية باللغة الإنجليزية على الجميع ثم يقدّم نفسه، مُتمنِّيا في خلجات نفسه أن يخطئ في غير فوجه، وإلا فالحرج سيلاحقه منذ يومه الأول مع زملاء لا يأمن جانب تنكيتهم ومزاحهم طيلة السنة.. قال في شبه ارتباك بلكنة إنجليزية مبتدئة: "صباح الخير". ردّ الأستاذ التحية نيابة عن الجميع، لكنه أضاف بلغة إنجليزية متمكنة:

- أرجوكم؛ احترموا الوقت ولا تتأخروا!!

اعتذر جليل إلى الأستاذ وأخبره بإنجليزية يلزمها الكثير من الوقت والاجتهاد لتتحسن؛ أنّ هذا هو أول يوم له بالكلية

[1] القصور: أو القصبات؛ طراز معماري مشيد من الطين، وهو عبارة عن سكن جماعي محاط بسور. تنتشر هذه القصور بواحات بلدان شمال إفريقيا

وأنّ سبب تأخره وجوب الانتظار عند الشبابيك المزدحمة للبحث عن فوجه وعن القاعة.. سأله عن مكان مَقدمه؛ فأخبره أنه قدم من الجنوب. قبِل الأستاذ العذر وتوغّل جليل إلى الخلف باحثا عن مقعد ليستدرك ما تبقى من الحصة...

انتهت السنة الجامعية بسرعة قصوى أو ربما لأن جليل كان دائم الانهماك في المطالعة والدراسة ولم يكن يأبه لشيء أخر غير تحصيله الدراسي فقط، خاصة منذ أن حذّره من سبق أن درس بهذه الشعبة من الطلبة قبله، وأخبروه بأن الإنجليزية لغة صعبة وتتطلَّب مجهودا مضاعفا ممن يتابع دراسته بهذه اللغة؛ بالإضافة إلى تحذيرات أبناء بلدته؛ من قبيل: "كن حذرا ياجلول!! يا ما تعثَّر قبلك كثير من الطلبة في هذا المسلك، وغالبا ما انتهى بهم الأمر إلى تغيير المسلك بعد إهدار ثلاث أو أربع سنوات دون تجاوز السلك الأول!!".

استطاع جليل بالكاد ينجح في سنته الأولى رغم ما كان يبذله من مجهود جبّار وتفان كبير في الكدّ والتحصيل، أقل ما يستحق عليه أن يكافأ بميزة مستحقة!! لقد استطاع خلال هذه سنته الأولى أن يحفظ بمعجزة منجد الجيب الإنجليزي ذو أربعمائة وتسعون صفحة، والذي يتضمن ما يفوق ثلاثين ألف مدخل أو مفردة، وكانت هذه نقطة تثير

غيرة بعض معارفه من الطلبة الذين كانوا يعتبرون هذه العملية تدميرية للذاكرة وتحميلها القيام بتمرين قاسٍ، وبالمناسبة فقد كانوا ربما محقّين في ذلك أو في البعض من ذلك.. كما أنه ترجم كل القصص القصيرة التي كانت مبرمجة في مادة 'القراءة الموجهة' وأتى على قراءة كتب كثيرة في النحو والقواعد وغيرها.. لكن المجهود الذي يبذله المرء في بعض الحالات لا يساوي بالضرورة المكافأة أو النتيجة المحصل عليها في الامتحان..!! أو ربما هي مسألة حظوظ وفرص لا يحكمها المنطق بقدر ما يحكمها قدر مُقدَّر...

****

****

ذات يوم، شتاء 2002...

"خْتَرْتْهَا قْصِيدَة مَنْسُوجَة مَنْ رْمِيزْ قَرْطَاسْ
بْخَطْ عَجْمِي ماَ يَدْرَكْ فْ اللَّغَا النْغَايمْ
كِغْزَالَة حَضْرِيَة مْن بْنَاتْ أَهْلْ فَاسْ
مَعَانْقَة شِي عَبْدْ قْنَاوِي مْن الصَمَاصَمْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

في باحة مقصف الكلية.. يجلس عبد النبي إلى طاولة يدخن سيجارة وأمامه فنجان قهوة وإلى جانبه كتب، يمسك بين يديه جريدة 'الصباح' التي يحرص على اقتنائها كل يوم أو يرتاد مقهاه المعتاد لاحتساء قهوة بجودة أفضل من التي تقدم في مقصف الكلية، ثم تكون فرصة لتصفح وقراءة هذه الجريدة وغيرها من الصحف الموضوعة في متناول الزبناء.. مرَّ بمحاذاته جليل رفقة زميلته في الشعبة وألقيا عليه التحية. انتبه عبد النبي إليهما بعد أن اقتربا منه، فبادلهما التحيّة والسؤال عن أحوالهما.. عرض عليهما احتساء قهوة أو حليبا ساخنا يدفع ثمنهما، شكره جليل وأخبره أنه يلزمه فطورا كاملا، سيطلبه من المقصف قبل احتساء منبه الصباح

قهوة عادية.. انصرف جليل ورفيقته، وإثر ذلك تدارك فاستدار مبتسما نحو عبد النبي، وأعاد عليه الجملة التي كان دائما يرددها على مسمعه كلّما التقيا صدفة في مكان ما أو عن موعد مسبق، ثم وجده صامدا على صيغة المفرد في حاله وأحواله:

- واش مازال مالقيت فَزْدْتْك الأخرى[1]؟

ابتسم عبد النبي في وجه جليل وقد فهم كلامه المُشفَّر.. هما صديقان حميمان جمعتهما الدراسة بالكلية في السنوات الفائتة؛ لم يفترقا إلا بعد أن تعثر جليل في إحدى السنوات، ولكن رغم ذلك فقد ظلَّ يلتقيه بين الفينة والأخرى في الكلية أو يزور أحدهما الأخر في مسكنه، وقد يُعدَّان جلسة سمر وشرب كلما أشتدَّ بهما ضيق وضجر الدراسة وضغط الظروف المادية والاجتماعية.. انصرف جليل وصاحبته فورا، أتبعهما ببصره محاولا خنق قهقهته المدوِّية التي لا يعرف كيف يُلجِم دوِيَّها من شدقيه، وكانت طريقة ضحكه هذه تزعج المحيطين به، وقد كان أحد أصدقائه يعاتبه دائما: "واش هذي ضحكة ولا رعدة؟".

[1] - ألم تجد زوج نعلك المفقود بعد؟

بدأ عبد النبي يحدِّث نفسه.. "أش من فَرْدَة أخرى؟ عطى الله الفَرْدَات!! ولكن فين هو قياسك؟؟ بحال هذي.. غير بناقص..!!". لايُخفي عبد النبي انطباعه هذا وغيره من وجهات نظره عن جليل، لأن علاقتهما وطريقة تحاورهما تتعدى الصراحة وحتى تخرج عن اللباقة في بعض المرّات من دون أن يفسد هذا الأمر الود الذي بينهما.. مرّ الشابان بمحاذاته من جديد وفي أيديهما حلويات ومشروبات ساخنة، باحثين عن ركن أو مكان ينزويان فيه لتناول الفطور.. ينظر إليه جليل ويغمز بعينه، وهي طريقة أو قل عادة لا تفارق جليل كلما أراد أن يبلغ رسالة صامتة لمخاطبه أو يستعملها لكي توّفر عليه فضول الكلام، فهي إيماءة بمثابة "الحر بالغمزة" وليس بسوء نية...

يعود عبد النبي يغوص مجددا في تفكّره.. "..والحق يقال، فجليل هذا شخص حسن الطبع نقي السريرة وكرمه يشهد به الجميع حيث لا يبخل عن إسداء ما يستطيع إليه سبيلا من مساعدة إلى كل من يقصده من معارفه وقت أزمة أو عسر مادي، فكان يقرضهم المال وفي كثير من الحالات يتناسى المبالغ البسيطة ولا يطلبها من مستدنيه، لأنه شاب عفيف النفس وإيثاره يسبقه دائما. كان معارفه وأبناء بلدته دائما يعتبرونه شابا محظوظا وذو سعة وينعتونه بأنه: "ديما

جيبه عامر".. فحوالة الأورو التي يبعث بها الوالد تصل من أوروبا مع انتهاء أخر درهم من محفظة نقوده؛ بالإضافة إلى أنه كان يقضي جميع العطل الصيفية في فرنسا مع العائلة للاستجمام وكذلك للعمل في أشغال مؤقتة يجني منها قسطا من المال يوفّره لوقت الدراسة..."

حوَّل نظره إلى جليل وجليسته اللذين كانا منهمكين في الأكل والتحدث إلى بعضهما البعض، دون أن يلتفتا إلى الجهة التي يقبع بها. وضع عبد النبي الصحيفة جانبا وأخرج من جيبه سيجارة ثانية وأشعلها ورفع فنجان القهوة إلى فمه ورشف رشفة أولى ثم أعقبها برشفة ثانية مما تبقى بالفنجان، ثم أزاحه من أمامه جانبا، وغاص يتذكَّر مجدّدا:

".. كان جليل في الغالب لا ينتهي من عطلته في أوروبا برفقة العائلة إلا بعد انصرام شهر أكتوبر، وكان كلما قدم من سفره إلاّ ويهديني علبة أو علبتي سيجارة من النوع الرفيع وورقة مالية من فئة خمسين أورو.. كان دائما يشغِّل ذكاءه وحسن أدبه في تعامله مع محيطه الاجتماعي، ودائما ما ينأى بنفسه عمّا يُشعر الآخرين بأنهم في وضع مادي أدنى منه أو أنه يتبرّع عليهم بشيء ما.. وهكذا كان هذا العفريت الأحمر يناولني الورقة النقدية مازحا: 'هاك شوف وسخ لهيه واش

بحال وسخ هنا؟؟'، وكنت أفهم لباقته في الكلام، متقبّلا هديته برحابة صدر ثم أجيبه ضاحكا: 'واهلي باش وسخهم زين على ديالنا[1]'، وأضيف هازئا كذلك: 'مزال ماشُفت لي شي جوزفين وخَّا شارفة، قابل نكون عكّازها وندير لها الميناج[2]'.. نضحك سويا ثم أضمه إلى صدري في عناق حار مهنّئا إيّاه على قدومه بسلامة وعافية والتقائنا من جديد...".

كانا يمزحان ويلهُوَان كثيرا مع بعضهما البعض.. كان جليل يشعر دائما أنه هناك شيء مشترك يجمع بينه وبين صديقه عبد النبي، لهما نفس الطباع والمزاج وطريقة التفكير، كان كل منهما يفضي للآخر عن أدق خصوصياته؛ من مشاكل العائلة وخصومات الأصهار وحتى أتفه التفاهات.. ورغم أن جليل شاب اجتماعي بطبعه وله معارف وعلاقات واسعة، إلاّ أنه كان يحب دائما أن يستّقل بذاته ويسكن بمفرده ليتفرغ تماما لدراسته، عكس طلبة آخرين يكرهون الوحدة، ويحبون أن يتساكنوا ويتعايشوا في غرفة مشتركة بأربعة أفراد أو يزيد، إما بسبب وضعيتهم المادية القاهرة أو بسبب طبعهم الاجتماعي المبالغ فيه.. كان جليل شخصا طموحا متفوقا يدرك أن سبيل النجاح وبناء مستقبل زاهر

[1] -"وسخ دنياهم هذا أفضل بكثير من وسخ دنيا نحن الذي تلطَّخ به المحظوظون فقط"
[2] - "ألم تقترح على إحدى العجائز 'جوزفين' الزواج مني، إنني أتقن أعمال البيت جيدا وسأكون سندا لها بدل عكازها"

يبتدئ بالكفاءة في الدراسة، ولهذا تجده دائمَ الجد والاجتهاد، لكنه في مقابل ذلك أيضا لا ينسى حظه من الاستمتاع بالحياة وتحرّر الشباب أو ربما تهوّر الشباب.

****

****

ذات عشية، نهاية أبريل 2002

"مَنْ كَثَّرْ حْبَابِي إِلاَ نْكُونْ فْ الخِيرْ
يَظَلْ رَسْمِي وَيْبَاتْ بْجَمَعْهُم عَامِرْ
شْحَالْ مَنْ مَحْبُوبْ وَجْدْتُه
وَشْحَالْ مَنْ عْشِيرْ
بْنَاوْ بِيتْ الخَدْعَة وَالنْقِيبْ كِالطِّيرْ
وَالحُوتْ المْشَرَّع يَجْرِي عَلى الصْنَانَرْ"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

على المنضدة.. يهتزّ هاتفه ويظل الهزّاز مستمرا في إحداث أزيز فوق سطح المنضدة؛ يزيح الإيزار عنه وينهض من السرير، مُنسلا من بين ذراعيها المتلفّعين بعنقه وهو يردّد:

- إلا قالو هذ البورطابل تابعة.. ما كدبوش، ديما التبرزيط[1]!!

يتّجه نحو المكتب دون أن يلبس منامته الملقاة على الأريكة المحاذية. يلتقط النقّال ويجلس على الكرسي ثم يجيب بنبرة متثاقلة تكاد تكشف عن امتعاضه من المتصل:

[1] - "لم يخطئ من وصف الهاتف النقال بأنه قرينة لا تكف عن إزعاج صاحبها"

- نعم...

ينبعث صوت رجوليا من سماعة النقّال يصل إلى مسمعها على السرير، تتغيّر فجأة نبرة جليل.. يضحك ثم يرد:

- أهلا عبد النبي.. كيف حالك؟

- لم أراك منذ أيام بالكلية؟

- صحيح، أنا معتكف بغرفتي منذ أيام!!

يضيف عبد النبي:

- لا سبيل لرؤيتك إذن؟؟

يلح جليل:

- كيف لا؟؟ الحق بي يا صاح!!

بدأت كلثوم ترتدي ثيابها قبل أن ينهي جليل المكالمة.. أخذ يلتفت إليها ثم وضع النقّال جانبا واقترب منها، مساعدا إيّاها على إقفال أزرار السترة.. وضع قبلة على شفتيها ثم أمسكت بشعره الأجعد رافضة إزاحة عناق الشفاه.. انفكّت شفتاها عن شفتيه، ممرّرة لسانها على متبقى من رحيق تلك القبلة.. ثم علّقت على المتصل في الهاتف

باللغة الإنجليزية كما اعتادت على ذلك في حوارهما معا، لصقل مهارتهما في التواصل الشفاهي:

- صديقك عبد النبي هذا غريب الأطوار شيئا ما!!

مبتسمًا، يجيبها كذلك بالإنجليزية:

- هو شخص طيب لولا بعض الخجل فقط!!

تنتهي من ارتداء ثيابها ثم تتّجه صوب المرآة وهي تجمع شعرها وتشدّه إلى الخلف.. تتوقف قبالتها لحظة، واضعة بخفّة لمسات بأصابعها الرشيقة لتحسين هيئتها، تفتح النافذة قليلا لتهوية الغرفة وتخرج عطرا نفاثا من حقيبتها ثم ترشّ حواليها بسرعة ثم في الفضاء. شرعت بعدها في تأثيث الغرفة وطي غطاء السرير وترتيب الوسائد ثم تصفيف ملابس جليل الملقاة على الأريكة، بعدها أخذت تزيل بقايا طعام الغذاء الذي ظلّ على المائدة منذ الانتهاء منه.

لبس جليل منامته ثم فتح باب الغرفة وخرج، تبعته ببقايا الأكل إلى المطبخ. يتّجه هو إلى الحمام، فتبدأ هي بغسيل الأواني وتنظيف المطبخ وبعدها تعود أدراجها إلى الغرفة. أدارت الشريط المفضل لديها من منوعات

'كلثوميات' ثم اتّجهت صوب خزانة الكتب وأخذت رواية 'أسفار غاليفر'، جلست على الأريكة وشرعت تتصفّح صفحات الرواية ممعنة القراءة في سطورها.. عاد جليل إلى الغرفة بعد هنيهة وهو لا يزال ينشف شعر رأسه المبلل بالفوطة، استدارت نحوه ثم قالت له: "بالصحة والراحة..!!" ثم أضافت بالإنجليزية:" سأنصرف الآن!! أترافقني لآخذ سيارة أجرة بالشارع؟؟"

أجابها مازحا بصوت غنائي أوبِرَالِي وهو يردّد مقاطع شعرية إنجليزية من قصيدة "انتظار" للشاعر والمفكر الأمريكي جون بوروز (John Bourroughs) منهمكا في لبس سرواله وقميصه:

انتظار...

هَادِئ الْفُ ذِراعَاي وانتَظِر
لاَ آبَهُ بِالرِّيحِ ولاَ بِالمَدِّ ولا بِالبَحْر
لَمْ أَعُدْ أَتَورَّعُ مِنْ الزَّمَنْ وَلاَ من القَدَر
مَهْمَا غَابَتْ عَنِّي سَتأتي زائرتي بِأَجَل

Waiting...

Serene, I fold my arms and wait,
Nor care for wind, nor tide, nor sea
I rave no more against time or fate
For Lo! my own shall come to time

يتوقف عن الغناء متوجِّها إليها: "انتظري.. انتظري قليلا!! ألاَ نقدم واجب الضيافة للضيف القادم؟" ثم أردف قائلا بالعَامِية وهو يضحك: "هذ الزُّغبِي راه عاوَّل على شي

دْوِيرَة في حمرية[1]..!!" لم تستفسر كلثوم عن كلامه المُشفَّر أو تطلب منه توضيحا أكثر، لأنها حذقة تفهم قصد جليل دائما، وهذا يغنيها عن إظهار الفضول الزائد.. انتهى من ارتداء ثيابه ثم اتّجه صوب الخزانة، أخذ علبة السجائر والمِرْمَادَة (المنفضة) بجانبها، يعود إلى المنضدة. وضع ما يحمل بين يديه وجلس على الكرسي ثم أشعل سيجارة وبدأ يدخن ثم عاد وسأل كلثوم، التي التصقت يداها بالكتاب ولكنها تختلس النظر إليه بين الفينة والأخرى، مُبدية اهتمامها وانتباهها للكتاب أكثر؛ فسألها بإنجليزية قوّمتها وصوّبتها أربع سنوات من الانكباب والمراس:

- هل انتهيتِ من قراءة الرواية الأولى؟

أجابت بإنجليزية لا تقل مهارة ونطقا سليما: "نعم، طبعا..!! منذ مدة..!! وقد ابتدأت في هذه.. الثانية!!" رفعت غلافها الخارجي نحوه دون أن تزيل أصابع يدها من بين صفحات الكتاب، ثم علّقت: "للكاتب الإيرلندي جونتان سويفت!!"

يجيب:

[1] - "يبدو أن هذا الشقي عازم على سمر ليلي في مركز المدينة!!" – حمرية: أو المدينة الجديدة كما تسمى بمكناس

- أكيد، وهي رواية تبرز الخيال اللامتناهي لهذا الروائي المعجزة سويفت..!!

تضيف:

- لقد رأيت نسختها المترجمة إلى الفرنسية عند إحدى صديقاتي عندما كنا ندرس بالثانوية..!!

يجيب:

- أكيد، النصوص السردية العظيمة تخترق كل الآفاق وتترجم إلى كل اللغات..!!

وصل عبد النبي بعد حين فطرق الباب.. ارتشف جليل رشفة واحدة من السيجارة ثم دسَّ رأسها في المِرْمَادَة (المنفضة) ضاغطا بأصبعيه عليها ليخمد نفسها دون إتمام ما تبقى منها.. قام من مكانه منهيا حديثهما بالإنجليزية ثم قال بلكنة جنوبية: "هَا هُو لْحَكْ..!! دْرُوكْ نمشيو نجيبو الكْـوتي[1]" ثم أضاف مقترحا عليها: "أش نجيبو الحرشة ولاّ

[1] -الكْـوتي: (gouter) كلمة فرنسية تعني وجبة ما قبل الغروب أو وجبة الشاي مساء عند الإنجليز. لْحَكْ: لحق– دْرُوكْ: حالا، الآن، على التو

الملاوي[1]؟". تجيب كلثوم غير متحمسة لفكرة المزيد من الأكل: "جيب اللّي بغيتتو.. أنا مكهومة[2]..!!".

أخذ محفظة النقود من فوق الخزانة ولبس حذاءه ثم نزل بسرعة كي لا يتأخر عن الطارق.. يغيب جليل لمدة من الزمن، تاركا وراءه صمتا قاتما يلفُّ نغمات وتأوهات أم كلثوم المنبعثة من (Hfi) وهي تتحسَّر على خيبات ونكسات الحب وعذابات أهل الهوى.. لايقطع نشيج السِّت سوى نحنحة خفيفة متقطّعة تنبعث من حنجرة أنثوية بين الفينة والأخرى يبدو أنها غاصت في غابة السرد والحكي الساخر للروائي جونتان سويفت.. سمعته من مكانها وهو يقوم بفتح باب الشقة ويتحدث إلى صديقه عبد النبي بأريحية وحميمية؛ وهذه عادته في الدردشة مع أصدقائه المقربين فقط..

صعد الإثنان الدُّرج بتريث، خافضين من صوتيهما أكثر فأكثر.. يتّجه جليل متبوعا بالزائر إلى المطبخ لوضع ما يحملانه في أكياس: حليب، علبة قهوة، جبن وفطائر وقبضة نعناع طري.. عادا فدخلا الغرفة، ألقى عبد النبي التحية على كلثوم التي قامت من مكانها واضعة الرواية جانبا، فاسحة له المجال للجلوس على الأريكة التي كانت ممددة عليها. أضاف

[1] -الحرشة والملوي: فطائر محلية في المطبخ المغربي
[2] -" أحضر ما تشتهيانه. أنا متخمة.."

عبد النبي محاولا أن يخفّف ممّا قد تحسّ به من خجل أو ربما ما يتظاهر به الجنس اللطيف في مثل هذه الأوضاع، فعلّق متأفِّفا من شدة تعرُّقه: "سخن الجو فمرّة واحدة.. صهد مفرط!!". أجابته وهي تحتذي صنادلها وتهمُّ بالانصراف إلى الخارج: "واه.. جا الصيف قبل الوقت!!"

انصرفت كلثوم وجليل إلى المطبخ لكي يُعدَّا شاي العشية.. جلس عبد النبي على الأريكة ملتفتا إلى أثاث الغرفة، يرمق بمحاذاته الرواية التي تركتها كلثوم جانبا على الأريكة، التقطها ثم بدأ يقرأ الغلاف الخلفي للحظة، ففتحها متصفِّحا الصفحات الأولى.. طال بقاء رفيقيه في المطبخ، يبدو أنهما منهمكين في إعداد الشاي وفطائره غير أنّه كان يصل إلى مسمعه بعض من حديثهما.. أغلق الكتاب ثم قام من مكانه لكي يعيده إلى خزانة الكتب، ثم شرع يفتش عن عناوين جديدة لدى جليل. توقف عن تمرير الكتب المرتبة في الخزانة بين أصابعه عندما أبصر جريدة 'الصباح' بمحاذاة التلفاز. انتصب واقفا واتّجه صوب الخزانة الصغيرة وأخذ الجريدة؛ كان جهاز تشغيل الأشرطة ما يزال يدير شريط طربيات أم كلثوم...

عاد عبد النبي إلى مكانه ماسكا بالجريدة.. انهمك يقرأ العمود الشهير 'شوف تشوف' لصحفي أشعّ نجمه واشتهر بأسلوبه الساخر ونقده اللاذع للساسة ورجالات الدولة، استمرّ يقرأ العمود ويضحك في شبه صمت من حين لأخر، استمّر بعد ذلك يتصفّح العناوين وما بداخل هذا العدد من ملاحق.. انتهى منها سريعا فوضعها إلى جانبه وتمدّد على الأريكة ريثما يحضر رفيقاه، مستمعا إلى الموسيقى الطربية الشجيّة التي لا تزال تنبعث من الجهاز بصوت خافت...

أخذ يُمعِن النظر في تفاصيل الغرفة المؤثثة بشكل لا يخلو من جمالية وذوق مرهف لا يغشى عنه البصر.. على الرغم من بساطة الأثاث المكون من سرير بغطاء أبيض ووسادتين بنفس الحجم مغشّاة بغشاء برتقالي فاتح وضع قبالة نافذة كبيرة؛ إلى يسار النافذة تتواجد خزانة كتب وضعت عليها لوحة فنيّة لمشهد سِرب حمام مهاجر يحلق في السماء وقت الشفق الأحمر أو الشروق، وإلى جانبها مرآة بحجم متوسط محاطة بأضلاع خشبية مذهّبة، في الأسفل ثلاث رفوف متساويّة، رتّبت عليها بإتقان كتب ومجلات بشكل عمودي بالرّفين العلويين، وفي الرّف السفلي وضع الكمان في غمده (شنطة) بشكل مائل، هذا الأنيس الأبدي

لجليل الذي لا يفارقه أينما حلّ وارتحل، فقد تعلّم العزف عليه بعصامية منذ سنوات الثانوية وظل يلازمه كظله.

إلى يمين النافذة، توجد خزانة ثانية أقل حجما من الأولى، عليها تلفاز وإلى جانبه مزهريّة ومنبّه وقطع ديكور مصنوعة من الرخام والحفريات. وُضِع في الرّف العلوي جهاز الأشرطة (Hfi) وفي الرّف السفلي وضعت مكبرات الصوت بشكل متوازي يمينا ويسارا، وبينهما عشرات الأشرطة والأقراص المدمجة مرتبة في قمطر صغير.. في الجهة الأخرى من الغرفة المقابلة للباب تركن مباشرة منضدة عليها حقيبة دفاتر وكتب جليل ورزمة من المطابع والكتب ومناجد متفاوتة الحجم وسلّة صغيرة بها أقلام وبجانبها مِرْمَادَة (منفضة)، علبة تبغ وأشياء أخرى.. تتوسط السرير والمنضدة أريكة كبيرة للجلوس كما يمكن استعمالها كسرير للنوم متى اقتضى الأمر ذلك، أمامها مائدة مستطيلة الشكل عليها غطاء...

عاد جليل وكلثوم إلى الغرفة محمّلين بصينية بها حليب وقهوة وشاي وصحون بها زيت زيتون وفطائر وجبن. وضعا الأكل على المائدة.. سأل جليل عبد النبي الذي ما يزال ممددا على الأريكة: "واش نعستي؟"، نهض عبد النبي ثم

استوى على الأريكة وأجابه: "لا..!! غير دوختني شويًّا الشمس!!"، يرد جليل: "صيّفنا قبل الأوان". وزّع كؤوس الشاي أمامهم.. وانهمكا الإثنان في دهن الفطائر وقضمها باشتهاء، فاكتفت كلثوم بشرب الشاي فقط؛ وهم يدردشون حول حالة الطقس وظروف الغرفة التي استأجرها جليل منذ مدة في هذا الطابق، مُبديّا استحسانه بمسكنه الحالي، لأنه هادئ أكثر من المسكن السابق، فهذه الشقة تحتوي على غرفته هذه وغرفة ثانية فقط لا يعيش فيها مكتريها بشكل دائم وإنّما يزورها بين الفينة والأخرى.

****

****

حَمرِية[1] ليلا...

"كِيفْ نَنْسَى تَلْطَامِي فْ دْرُوبْ مَكْنَاسْ
غُرْبْتِي وَمْبَاتِي فْ دُكَاكَنْ المْدَارْسْ
اعْيَاوْ بِيَا الحْوَانْتْ فْ اسْوَاقْ الاَبْخَاسْ
والبْيُوتْ والفْنَادَقْ وحْصَايِرْ المْجَالْسْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

يتجول جليل رفقة عبد النبي في شوارع حمرية التي تشهد حركة زائدة في نهاية الأسبوع.. حركة سير بطيئة في كل الاتجاهات، حركة تجارية دائبة.. أكشاك في كل الشوارع تعرض الصحف والمجلات والكتب ومطاعم ومقاهي وحانات مكتظة بالمرتادين، حوانيت وبوتيكات تغصّ بزبناء كثر يتبضّعون ويبحثون عن المستجد من الأزياء والملابس.. نفير من المتنزهين يغتنمون فرصة فراغهم من الأشغال فيتجوّلون في كنف ليل حمرية الهادر...

[1] -حمرية: اسم يطلق على المدينة الجديدة التي ورثتها مدينة مكناس عن المستعمر الفرنسي. تم تشيّدها على الطراز المعماري الفرنسي كانت تحتوي إدارات والمرافق الحكومية لسلطة المستعمر كما أنه قطن بأحيائها المعمرون خلال فترة الاستعمار للمغرب.

كل من يحوم هنا إلاّ وفي نفسه حاجة يسعى إلى قضائها.. بنات الليل فرادى ومثنى بالقرب من الحانات ومحطات سيارات الأجرة وفي زوايا الشوارع يتحسَّسن مقتنصي اللّذات؛ فيعرضن على الشباب وغيرهم من زائغي الأعين ليالي ساخنة، ومتسولون بأعمار مختلفة من كلا الجنسين يستجدون المارّة بكلمات تظهر أو ربما تخدع برقَّتِها الأسماع لكي تستدِّر رأفتهم ورحمة قلوبهم...

نساء يَحملن أو يُجلسن رُضَّاعا بمقربة منهن، متعمدين إظهار عبوات الحليب الاصطناعي المجفَّف لاستدرار عطف وحنان الآباء والأمهات من أجل التبرُّع أو التصدُّق على المتسوّلة لإرضاع صبيةٍ أو صبيٍ جاء إلى هذه الدنيا؛ وأول ما ابتدأ به أيامه الأولى في هذه الحياة كان موَّال "ملعون أبوك يا فقر يا محوجني للأنذال..." حكاية فقرٍ منذ أول مصَّة في حلمةٍ شحّ منها حليب أمه، فماذا عساه ينتظر في قادم أيامه ولياليه؟؟

في كل الشوارع، حرّاس مرائب ومواقف السيارات بسحنات مرعبة وأسنان سوداء مهترئة أصابها زلزال التبغ الأسود الرديء والخمور الرخيصة المعروفة بـ "دم الحمار" في أوساط السكارى والمدمنين من الطبقة الشعبية التي

تعيش على هامش المجتمع في أحياء الصفيح والعشوائيات المنتشرة على جنبات مكناس وقتئذ؛ فهؤلاء أعطوا لأنفسهم حق السطو على حواشي الشوارع وجعلوا منها مصدر رزق بمجرد أن يرتدي بعضهم تلك الصدريات الصفراء يحشر نفسه ضمن أعوان مصالح ومجالس مؤسسات الدولة، فيصير ناهيا آمرا يوزّع الصكوك ويحدد تسعيرته الخاصة بحراسة السيارات المركونة في حوافي الأزقة والشوارع، فبنوا كوخا أو مخبأ في عالية الشارع أو سافلته لإعطاء شرعيةٍ لعمله التي تواطأ معه فيها ربما مسؤول في المقاطعة أو في جهاز الاستعلامات الداخلية مقابل إتاوة على رأس كل شهر مع تزويد السلطة بكل "شادّة وفادة" عن نقطة تواجده متى لزم الأمر ذلك...

كان جليل يقوم، بين الفينة والأخرى، بمثل هذه الجولة بمفرده أو بمعية المقرّبين من أصدقائه فقط، لا يحب أن يعيش هذه الأجواء سوى مع أناس يثق فيهم كثيرا.. بات الاثنان يقومان بمسح تام لشوارع حمرية وهما يدردشان في مواضيع كثيرة، ويعلّقان على مختلف الظواهر والغرائب والعجائب التي يصادفانها أو قد يتورّطان فيها في هذا المكان الذي كلّ شيء فيه محتمل...

مرّا بجانب أحد الحرّاس الذي دخل في ملاسنة بديئة مع متسوّلة على ما يبدو أنه أراد إبعادها عن أن تستوطن هذه الزاوية من الشارع للتسوّل، وخشية أن تصبح لها كذلك شرعية بهذا الركن على حين غفلة منه في ما بعد مع توالي الأيام، وقد تتفاوض بعدها مع محتلّ وافد أو محتلّة جديدة حول بيع أصله التجاري، ومن يدري؟؟؟ فالشارع له منطقه وعرفه الخاص وهو مليء بكل التناقضات الأخلاقية.

هناك من أخرجته فعلا الحاجة والفاقة دفعته دفعا إلى التسوّل أو البغاء أو النّشل للحصول على لقمة عيشه ولو بهذه الأساليب المنحطّة، وهناك من اتّخذ في ما يفعل وسيلة للنّصب والاحتيال على النّاس قصد الرّبح المادي السّهل وربما الاغتناء الفاحش عن طريق هذه التصرّفات والسلوكيات المشينة والممنوعة، فمثل هؤلاء لا يأبه للقيم ولا للقانون!! وكيف يأبه لهما وهو ربما لم ينشأ في وسط أسري سليم..؟

جل هؤلاء الأشكال من طبقات المجتمع لم يتخطَ الواحد منهم عتبة مدرسة في حياته أو حياتها ولم يدخل مسجدا قط لسماع موعظة؟ وإنّما اكتفى لنفسه بموطئ قرفصاء قرب إحدى بوابات الجامع لكي يبتزّ مصليين صدَّقوا

ما سَمعوا في موعظة الجمعة، فأدخلوا أيديهم في جيوبهم وحرسوا على ألاّ تعرف يسراهم ما تصدقت به يمناهم على متسوّل؛ لا يهم هل هو محتاج مكره صادق أم محتال نذل؟ كل همّه هو تلقُّف بجشع ما يُذرّه عليه سؤال الناس بوجه كالح؟ وقد يتبقى للبعض من هؤلاء أثر رطوبة عابرة من ماء وجه، فيتمنى في صمتٍ أن يا ليته أوتي ما أوتي هؤلاء من نظارة وجهٍ احتفظ بماء عفَّته...

لكن في مقابل أولئك، فمن الناس من آثروا أن يعطوا السائل ولو جاءهم على صهوة جواد؛ فهم صدّقوا وانقادوا إلى حديث رسول الله (ص) وليس لزيف فقره وحاجته التي لم يحِن لها أن تُكفَى ولو بمرور سنوات طويلة قضها في كنس أموال كثيرة أمام هذه المساجد وفي زحام الأسواق...

لم ينهيا قطع مسافة نفس الشارع وقبل أن يلُفّا ليغيرا اتجاههما، مرّا بجانب إحداهن فحاولت أن تستوقفهما لتتحدث إلى عبد النبي وتعرض بضاعتها عليه، فقالت له: "أداك الزوين.. أبو نضاضر!!". التفت إليها عبد النبي دون أن يستجيب إلى محاولتها، لأنه لا يدري من المقصود بكلامها هل هو أم رفيقه فكلاهما يضعان نظارات طبية؛ ولمّا يئست

من طمعه أردفت قائلة بنبرة هادئة فيها استهزاء من فحولته: "أجي نقول لك آ بوقال متخافش[1]!!"...

انفجرا ضاحكين معا، لكن عبد النبي كان عادلا فردّ عليها الصّاع بصاع مثله، لكي لا يترك ثقل ما نعتته به في نفسه: "تسنّاي بوقال هاهو جاي آ بوقالة!![2]".. تابعا سيرهما وشرعا يتحدثان عن هذه الظاهرة، فقال عبد النبي لجليل مازحا وهو يقهقه: "وراك عارف بلايصهم!!"[3]. يرد جليل ضاحكا: "آش عارف.. الدنيا كاملة ديالهم!!". يردف عبد النبي ضاحكا: "شافتني بنضاضري وبغات تحصل فيا[4]"...

قهقها معا بصوت مرتفع وتحوّلا إلى الرصيف الأخر بعد أن اقترح عليه جليل أن يتناولا العشاء في مطعم اشتهر بتقديمه لحم الدجاج المشوي، لا يمكن أن تتذوق مثله في محل أخر.

لا يعترض عبد النبي على مقترحات جليل عندما يكون برفقته، فهما الاثنان كما يقول المثل الشعبي "الحوك

[1] -" اقترب أقول لك شيئا يا صاحب الرأس المستطيل.. لا تخف مني"
[2] -"انتظري مكانك، ها هو مستطيل الرأس قادم.. يا مستطيلة الرأس!!"
[3] -"وتعرف أوكارهم ومواقفهم أيضا!! يا لك من ولذ مهذب!!"
[4] -" رأتني بنظارات سميكة وظنت أنها ستورطني في خلقتها الذميمة"

وغطاه[1]" لهما طبائع متشابهة وأذواق متطابقة في كثير من الأحيان.. داخل المطعم، لاحظا أن الديوك المشوية ما تزال تنضج لتوّها فتشجّعا على البقاء لوجبة العشاء في هذا المكان.. انتهيا من الأكل، فخرجا وهما يفكران في وجهة جديدة بعد أن امتلأت المعدة...

سأله عبد النبي مازحا: "حيت تشبع الكرش، آش تتقول؟". أجابه جليل وكأنه اكتشف تتمة اللّغز: "تتقول للراس غنّي"؛ يعلّق عليه عبد النبي متهكما كما يفعل معلم فاشل في حصة بمدرسة عمومية: "حسن جدا، باين آولدي تتزيد السوايع بالليل[2]". ضحكا ملء شدقيهما ثم سأله عبد النبي وهو جاد هذه المرّة: "فين نحطو الرَحْلَة؟"، أجابه جليل وهو يتفقد محفظته بعد أن أدى ثمن وجبة العشاء ويبحث في ثناياها عن بطاقته البنكية: "أجي نشوفو هذا الكيشي واش مازال فيه ما نخرجو..!!".

يتّجها صوب شبّاك أوتوماتيكي لوكالة بنكية في الشارع الخلفي.. سحب جليل قسطا من المال، وبعدها لفّا صوب سينما كاميرا. أخذا ينظران إلى الملصقات المعلّقة للأفلام الجديدة المعروضة.. كان جليل يحب مشاهدة الأفلام ويرتاد

[1] -"الحوك وغطاه": العلبة وغطاؤها، هذا مثل شعبي مغربي يقصد به التطابق بين شيئين
[2] "أحسنت يا بني، يبدو أنك تتلقى دروسا خصوصية بالمساء"

السينما من حين للآخر بمفرده أو برفقة صديقته. يتابعان المسير بعد أن علّق جليل على الأفلام المعروضة التي لم تغريهما بالمتابعة لأن برمجة سهرة الليلة فيلمان أمريكيان فقط!! يجيبه عبد النبي الذي يهوى السينما كذلك بل وأنه يقوم أيضا بتصوير بعض الأفلام التسجيلية بكاميرته اليدوية ويقوم بتوضيب تسجيلاته بنفسه على سبيل الهوية، بأن العرف في سينما كاميرا أنّها تبرمج في سهرة نهاية الأسبوع فيلما أجنبيا وفيلما أخر مغربيا أو عربيا...

يلفان بممّر "شان إليزيه" المحاذي ثم يتجهان نحو القصر البلدي وبعده يعبران إلى حديقة مجاورة.. جلسا بأول مقعد يجدانه متاحا ثم أخرج جليل من جيبه علبة سجائر حمراء من النوع الرفيع، سلّ واحدة وأشعلها ثم ناول عبد النبي العلبة ليأخذ بنفسه سيجارة.. كان جليل يتحلّى بهذه الخصلة واللّباقة في التصرّف، حيث كان دائما يعلي من شأن من يعرض عليه سيجارة بأن يناوله العلبة بأكملها ليأخذ سيجارته بنفسه، وكان يخبر من سأله عن هذه العادة بأنه لا يحب أن يناول الأشخاص سيجارة كمن يقدّم لهم صدقة...

سلّ عبد النبي سيجارة وأعاد العلبة إلى جليل ثم نزع من بين أصابعه القدّاحة، فأوقدا التبغ يرتشفان النيكوتين

وهما يتحدثان عن بعض الأفلام التي سبق لهما مشاهدتها؛ وعن تحسّن أداء السينما المغربية منذ منتصف التسعينات وعن أبرز الأفلام السينمائية التي أبانت عن مهارة وحرفية صانعي السينما في المغرب، خاصة الانطلاقة القوية مع فيلم "علي زوا" الذي وُظّفت فيه تقنيات سينمائية عالمية لمخرجه الشاب القادم من مملكة النرويج التي أتم بها تكوينه السينمائي.

قام عبد النبي من مكانه بعد ألقى بعقب السيجارة، وبدأ ينفث الغبار عن الأطراف السفلى لسرواله ويمسح حذاءه بمنديل ورقي معلقا: "من لاَفَاك لعندك الزهوة تغبَّرنا بحال تقول كنا خدامين فالكاريان[1]". سأله جليل: "منين دزتي.. من التجزئة؟". يجيب عبد النبي: "واه.. باش نختصر الطريق فديك الشمش الحارقة!!". يحذره جليل: "رد بالك مرة أخرى بحال هكّا بالليل تَيْتَكْرِيسَوْ الناس تمّاك[2]"...

بعد ذلك، قام جليل من مكانه ملقيا هو الآخر بعقب سيجارته، مخبرا إيّاه عن حوادث سرقات تعرض لها الطلبة ليلا بذات المكان، وتجريدهم من دراهمهم المعدودات

[1] "علق بي غبار كثير في طريقي من الكلية إلى مسكنك بحي الزهوة وكأنني قضيت يوما كاملا اشتغل بمقلع الرمال"

[2] -"كن حذرا في المستقبل.. كثير من المارة تتعرض في ذلك المسلك للسرقة تحت التهديد والتعنيف مساء وليلا"

وهواتفهم النقّالة وكل ما قد تكون تزيّنت به إحدى رفيقاتهم من خواتم أو أساور أو سلسلات ثمينة، تحت تهديد العنف والتلويح بالسكاكين من طرف أحد الأشخاص من ذوي السوابق من المفرج عليهم من السجن مؤخرا، وقد وجد هذا الأخير في تلك التجزئة الناشئة شبه الخالية من الساكنة موقعا لنصب كمائن يباغت فيها المارة وقت الغروب وبالليل أو حتى في الصباح الباكر، ويتصيّد خاصة طلبة الجامعة الذين يقطنون بالجوار، حيث غالبا ما يبحثون عن مسالك مختصرة بين ثنايا هضبات هذه التجزئة السكنية المقتطعة حديثا من مساحة زراعية أو غابوية بعد أن شملتها التهيئة الحضارية.

استمّر جليل في الحديث عن استفحال ظاهرة النشل والسرقة بالعنف في مكناس في الآونة الأخيرة، والتي تحوّلت في بعض الحالات إلى جرائم قتل نتيجة طعنات مميتة بسكين أو غيره، وقد أخبره عن حادثة ذلك الطالب الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى بعد طعنة وجهها له أحد اللصوص بخنجر في هوامش "دوار جبالة" عند محاولة أحد اللصوص سرقته، فدخل هذا الطالب بتهور في شجار عنيف مع هذا الأخير لردّ الاعتبار إلى رجولته أمام صديقته، فأودى به تهوّره إلى الإجهاز على حياته أمام جانح أثيم...

تأسّف عبد النبي على النهاية المأسوية لهذا الشاب المسكين الذي توقّف لا محالة سيناريو أحلامه الوردية التي ربما كانت بالجملة وليس بالتقسيط فحسب؛ لم يكن للأسف الشديد يتصوّر أبدا أن قدره سيخلف موعده معه في تحقيق مشاريعه ربما بعد مسار أكاديمي ناجح أو فرصة سفرية إلى أوروبا لتحسين وضعه الاجتماعي والاقتصادي أو على الأقل زواجه عن حب عفوي بتلك الفتاة التي كانت برفقته وشهِدت نهايته المفجعة؛ لا يهم إن كان صادقا معها أو كان كاذبا، ولكن هاهي الحياة برمتها تتخلّى عنه في لحظة كراهية؛ سواء أكانت مقصودة أم طائشة من طرف جانٍ لا يعلم دافعه الحقيقي فيما اقترف إلا هو نفسه وخالقه، حتى ولو بدا في ظاهر الأمر أنه مذنب لكنه هو كذلك قد يكون ضحية واقع مرير ومجتمع متصلّب لا يلين بسهولة لأبنائه...

أنهى عبد النبي الحديث عن موضوع هذه الحادثة المؤلمة وعاد لمزاجه الهازئ، مغتنما فرصة استمتاعهما بالتِجوال في أجواء المدينة ليلا للترويح عن نفسيهما وتغيير الروتين اليومي الذي دأبا عليه ذهابا وإيابا، سالكين نفس الطريق من البيت إلى الكلية. أخبره مغمغما وهو يضحك وكأن إثارة موضوع الموت في قصة حادثة ذلك الطالب لم تجد لها

وقعا على روحه: "خَصْنا نمشيو باش نديو ما نشربو قبل ما يسد البيسري..!!"

يضحك جليل الذي اعتاد على هذه الكبوات معه وحتى بمفرده بين الفينة والأخرى، كلّما أشتدّ به الضيق والضجر من الروتين وإجهاد الدراسة والمزاج العكر الذي يخيم عليه بدون سبب، يجيبه واثقا: "ما تيسد بكري غير الجامع..!!". قهقها عاليا ثم أضاف جليل: "ضربة الله عسّاسة على المارقين بحالنا!!". ارتفعت قهقهتهما من جديد.. يتظاهر عبد النبي هذه المرّة بجديّة ومعقولية، فيعلّق عليه بلكنة ساخرة: "هذي غير مُويِهَا نقيَّة ماشي حرام!!". يردّ عليه جليل مقهقها: "هِيَّ على تقليدك هذ الفتوى العلاّمة..؟"

عادا أدراجهما من حيث أتيا.. يخبره جليل عن حانة بالقرب من هذا المكان كان يأخذه فضولا كلما مرّ بجانبها، فاقترح عليه أن يقوما بجولة سريعة داخلها!! يتجهان صوب الحانة ثم يقتربان من المدخل.. أبصرا امرأة في سن الكهولة تطلب المساعدة من المرتادين ومن الخارجين خاويي الوفاض، لم تسألهما شيئا ولكنها أمعنت النظر فيهما جيدا. دخلا وقد عقّب عبد النبي على ما رأى: "مالقت هذي فاش

تسعى غير هنا وفهاد الوقت؟". يجيبه جليل وقد كان دائما نبها ويقظا وذو حاسة سادسة لا تخطئ في فهم حقائق الأمور: "شكون عرف أش تدير هديك؟ باينة من عينيها شي حنشة!!"[1]...

دخلا الحانة ثم نزلا إلى الطابق تحت أرضي.. كانت الحانة فسيحة من الداخل، يتواجد بها زبائن قلائل متناثرين حول طاولات متباعدة. كان الفضاء مؤثثا بإضاءة خافتة تتغيّر في بعض أجزاء الصالة التي تنفتح على كونتوار طويل وضعت حوله مقاعد مرتفعة تسمح للجالسين أن يصلوا إلى مستوى سطحه الذي توضع عليه "الطلبيات" وهو يقابل مباشرة الرفوف المرتب عليها قناني كثيرة لأجود الخمور والنبيذ المعتق الذي غالبا ما يقدم للزبائن في كؤوس بسيقان رقيقة وقد يتم تخفيف جرعاته بماء غازي أو ماء معدني.

يقترح جليل البقاء لاحتساء قنينتي جعة أو ثلاث قبل الانصراف، لم يعترض عبد النبي على الاقتراح ولكن أخبره أنه لا يحب الجلوس في هذه الأماكن، فقد يصادف في هذا المكان أحد أولئك الذين يلقون عليهم المحاضرات في الكلية، وقد حدث مرة أن صادف أحدهم في مكان آخر وهو لا يحب

[1] -" وما أدراك بمهمتها؟ يبدو أنها مخبرة سرية أو عين من العيون!!"

مثل هذه المصادفات.. يدرك عبد النبي أن هذا مقام له ايحاء طبقي وليس لمن في وضعه الاجتماعي، ولهذا فالأجدى أن ينعم بطقسه في غرفته منزويا بعيدا عن الأعين.. اقتربا من الكونتوار ثم جلسا بمحاذاة بعضهما، اقتربت منهما إحدى النادلات فعرضت إسداء الخدمة، فطلبا ما اتفقا عليه قبل جلوسهما.

وضعت النادلة أو "السّاقية" بلغة الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي أول الغيث أمام كل منهما؛ قنينة جعة مثلجة لتروي ظمإٍ طالت مدته منذ آخر جلسة سمر التقى فيها عبد النبي مع جليل؛ أما هذا الأخير فقد يكون اختلس لنفسه جلسات شرب فردية في وقت قريب.. شربا الأولى ثم الثانية على عجل كمن أغاث ملهوفا في صحراء ألمَّ به ظمأ شديد بشربة ماء من قِربة باردة في يوم صيف قائظ. أشار إليها أن تأتيهما بثالثتين، وضعتهما أمامهما حالا، ثم انصرفت تنظر بفضول هي وزميلتها إلى جهة اليمين...

استدارا الاثنان كذلك لمشاهدة ما يجري خلفهما بدافع الفضول.. فوقع بصرهما على رجل كهل في منتصف عقده السابع على أقل تقدير ذو سحنة أوربية، وقد تحلّقت من حوله أربع شابات يشاركنه الشرب على طاولة امتلأت

عن آخِرها بقناني الجعّة.. فجأة، شرع هذا الرجل السبعيني، قصير القامة أبيض الشعر ممتلئ الجسم، يخرج من جيوب "جاكيته" رزمتين من الأوراق النقدية سماوية اللّون واحدة تلو الأخرى، وأخذ ينثر الورقات المالية على رؤوس ونهود جليساته وهنّ يتخاطفن عليها بأدب مصطنع يخفي وراءه شراسة وبذاءة لا تتقنها سوى هؤلاء المومسات في شجارهن المُستعير...

لو عرف هذه الحقيقة ذلك المغفّل لما جالس هذه الأشكال من النساء، اللائي من السهل أن ينشب بين بعضهن منتفة دِيَّكة وشجار عنيف حول زبون سخي أو من أجل فرض الذات بحانة يكون فيها الصيد دائما في المتناول، بخلاف حانات أخرى قد تقضي فيها الواحدة أمسية كاملة دون أن تضفر ولو بنصف جعّة يتفضّل بها عليها مرتاد حانات "حازق" عقد العزم مسبقا على أن يكبح نفسه عند أربع أو خمس قناني لأن دريهماته معدوادت سلفا...

شدّ مشهد هذا العجوز الذي ينثر أوراق مئتي درهم نثرا أو "زَرْقَلافْ ريَال" كما ينعتها الكادحين من السواد الأعظم من أولاد الشعب، على هذه نهود هذه الخُشب المسنّدة وبهذا السّخاء الجنوني، أنظار كلّ من كان بالحانة. لم تخفيا

النادلتان أسفهما على عدم تمكنِّهما من الالتحاق بمُقتسِمات الكعكة أو "الوزيعة" السمينة التي انبلجت كعين متدفقة بأوراق مالية من الجيوب الداخلية لجاكيت هذا الإسباني المنتهية صلاحيته في الأمور التي تأتي من أجل عرضها تلك الكائنات الليلية المُتلفِّعَة حوله.. استدار عبد النبي لإتمام ما تبقى من جعته وكذلك فعل جليل ثم قال له مبتسما: "ترفيحا جاتهم برجليها[1]!!". يعلّق على ما قال نديمه دون أن يكبح قهقهته التي سمعتها النادلتين: "دجاجة بكمونها وعلاش ما يريشوهاش؟؟"...

لم يدُم مكوثهما بالحانة سوى وقتا قصيرا ثم خرجا بعدها إلى الشارع وتوجّها صوب "البيسري[2]" في ملتقى الشوارع.. في طريقهما، استمرا يتحدثان عمّا شاهداه في تلك "الحفرة" التي بالكاد يصعد منها النازل إليها محتفظا بما يكفي من نقود لاستئجار سيارة أجرة تُقِلّه إلى سرير نومه، هذا إن لم تعصف به عاصفة مثل تلك التي أصابت ذلك العجوز؛ فينتفض مما يحمل معه من مال بهذا المكان مِثلَ ديكٍ باغته المطر فانتفض ممّا ناله من ماء علق بريشه...

[1] -"جاءهم كنز وانفتح عن مصراعيه"

[2] -البيسري: (épicirie)كلمة فرنسية وتعني المحل التجاري

مازِحًا، استرسل عبد النبي في حديثه مشكّكا في قدرة هذا العجوز البدين على مضاجعة ولو واحدة منهن فقط، فكيف بأربع نساء في سن الشباب دفعة واحدة؟ ضحك جليل معلّلا ملاحظة نديمه وأخبره أن هؤلاء السوَّاح الأجانب يصيبهم الخبل في خريف أعمارهم، ومنهم من يصاب بمراهقة متأخرة، فتجده يلاحق الصبايا في سن حفيداته، رغم أن حالته الصحية لا تؤهله أن يتعدى قبلة حارة على شفتي يافعة فما باله بمضاجعة تشترط قلبا قويا صامدا على الصعود والهبوط تجبره ضجيعته عليه؛ ثم أضاف أن هذا الأمر ممكن إذا جزمنا أنه مجرد "زَلاَّل شَارْفْ"[1] يبحث عن شهوة ضاعت منه في سالف أيام شبابه، وها هو الآن يستدركها في الضفة الجنوبية التي بها فائض من بائعات الجنس والشهوة...

وافقه عبد النبي تحليله، مخبرا إيّاه عمّا حكاه له بعض أصدقائه عن صنفٍ من هؤلاء يتوافدون على طنجة التي تتواجد على مرمى حجر منهم، ليس فقط لينعموا بقضاء عطلة نهاية أسبوع في فندق تقليدي مريح والاستمتاع بتذوق الأطباق الأصيلة للمطبخ المغربي، ولكن تكون فرصة أيضا لتدخين الحشيش الكتامي الخالص وممارسات جنسية شاذة

[1] -"زلاّل شارف": شيخ مفتون لاتزال شهوة فرجه تغلب عليه، فيتعرض للصبايا..

ومشينة يشاركهم فيها شباب مدمن محتاج إلى المال.. ولا يردّ إغراء تلك الورقات سماوية اللّون عن ذي حاجةٍ أو مدمنٍ رادٌ أو ناهٍ؛ كما رأيتها تتقاطر على صدور فتيات الحانة..!!

أنهيا حديثهما بعدما وصلا أمام مدخل الحانوت.. دخلا وأمرا بقنينتي كحول فرنسي الصنع وقناني جعة، لفّ مساعد صاحب المتجر "الطلبيات" في صفحات جرائد ووضعها في كيس بلاستيكي سميك وناولهما إيّاها بعد أن دفعا ثمنها ثم انصرفا...

****

****

اليوم الموالي، منتصف اليوم...

"هَكْذَا الدُّنْيَا الغَرَّارَة تَدِيرْ لِلْقُومْ
هَكْذَا الدْهَرْ مَشَتَّتْ كُلْ أُمَّة
يُومْ مَالحْ يُومْ حْلُو يُومْ زَقُّومْ
يُومْ مِسْتَعْدَلْ بِين الطِيبْ والسْلاَمَة"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

استفاق عبد النبي أولا.. جال بناظريه من حواليه؛ من فتحتي جفون منتفخة وشبه مطبقة ثم فتح عيناه على صاحبه الذي ما يزال شبه مغمى عليه على السرير. نهض من الأريكة ثم جلس ثانية يترنّح ماسكا برأسه، ما يزَل يحسّ بالدوار والغثيان. لقد أفرطا معا في الشرب بالأمس.. نظر إلى المائدة الممتلئة بمخلفات سهرتهما الخمرية في الليلة السابقة.. صحون صغيرة بها مكسّرات وزيتون أخضر وبذور محمصة بيضاء وسوداء، مِرْمَادَة (منفضة) بها ركام من الرّماد وعُقب السجائر وقناني جعة فارغة فوق المائدة وعلى جنباتها...

أثاره مشهد الطاولة ذاك، فتخيّلها بين لحظة وعي تغلب عليها لحظة هذيان حديقة معلّقة.. كان مايزال بأحد

الكأسين قليلا من كحول بلون ذهبي، بدا وكأنّه زهرة فانيلا واقف على ساقه وسط غابة أشجار خضراء من قناني الجعّة.. إلى جانب الكأس الثانية الفارغة، تُركت قارورة مايزال بقعرها بقية من الشراب...

يلتفت جانبا فيرى أثر قيءٍ على السجاد يبدو أن الذي تقيَّأ اجترّ كل ما بمعدته من شراب وأكل لم يهضم بعد.. لا يتذكر من غالبه القيء منهما ولم يمهله مسافة التّوجه إلى دورة المياه لاستفراغ معدته. يحسّ بمغص شديد في معدته، وقف يتمايل ثم احتذى صنادل وخرج من الغرفة في اتجاه دورة المياه. سمع هاتف جليل يرنّ لبرهة من الزمن؛ عاد وقد غسل وجهه ورأسه ليخفف من حدّة الصداع الذي يعصف برأسه.. وجد جليل قد استفاق لكنه ما يزَل طريحا على السرير وهو يتحدث في هاتفه...

كان صوت كلثوم ينبعث بوضوح من سماعة الهاتف ويصل إلى مسمع عبد النبي، تبادلا الاثنان تحية الصباح وكلاما في الحب، يبدو أن العشق قد لفّ حباله عليهما...

ودّعها جليل وألقى بهاتفه جانبا ثم انتبه إلى عبد النبي الذي شرع في إزالة المخلفات من على المائدة ووضعها في كيس القمامة ثم خرج لكي يأتي بوسائل التنظيف لإزالة ما

تبقّى من بقعة القيء على السجّاد التي تنبعث منها رائحة عفنة تزكم الأنوف.. عاد بمجفف وسطل من الماء؛ حينئذ استوى جليل على السرير يفرك عينيه بأصابعه ويضغط بكلتا يديه على رأسه، يبدو أنه هو الآخر يحس بنفس الدوار والصداع.. قام من مكانه ملقيا التحية على عبد النبي واتّجه نحو النافذة وأتمّ فتح دفّتيها عن مصراعيها ثم شرع بعدها في طي الأغطية وترتيب الوسائد وتوضيب لحافي السرير والأريكة.

ضاحكًا، يرد التحية عبد النبي الذي ما يزال يمسح السجّاد ويكنس الزليج.. أخبره جليل أنه لا داعي لكنس السجّاد فلا بد من لفّه وحمله إلى السطح لغسله بالماء والصابون فهذه فرصة وقد حانت، طالما كان يحتاج هذا السجّاد إلى التنظيف منذ أمد بعيد.. أزاح عبد النبي الطاولة جانبا ثم لفّ بسرعة السجّاد وأخرجه من الغرفة ثم مرّر المجفف مكانه ثم أعاد الطاولة. سأل عبد النبي جليل بعدما انتهى من ترتيب الغرفة وهمّ بالخروج لدورة المياه: "شكون اللي بُووّع هنا[1]؟". قهقه جليل بصوت مرتفع كما يفعل عبد النبي نفسه: "ماعقلتِش شكون؟"...

[1] -"من غالبه القيء على السجّاد؟"

سكت عبد النبي قليلا محاولا أن يعتصر ذاكرته لاسترجاع تفاصيل ما جرى بالأمس، لكنه لم يستطع أن يتذكر أي شيء مما حدث بعد أن توقّف جليل عن عزف الكمان...

كان عبد النبي في تمام وعيه إلى حدود اللحظة التي أخذ صديقه آلته الموسيقية وبدأ يعزف مقاطع طربية من الكلثوميات؛ وبعد ذلك لم يتذكر شيئا مما حدث.. كانت الكمان لا تلين بين أنامله وتبدأ بالبوح والنحيب إلا بعد أن يكون جليل في حالة وجدانية فريدة أو قل لا شعورية؛ وقد كان يخبر عبد النبي عن هذه الحالة الإبداعية التي تنتابه حيث تتحوّل أذناه من حالتها العادية إلى ما يشبه مجسّات تلتقط تفاصيل وألحان لا يستطيع عزفها في الأوقات الأخرى. كان عبد النبي يفسّر هذه المسألة بقوله: "هذ العجب تيزيد فيك الفولطاج[1]".

بعد أن وصلا بالأمس من حمرية في حدود منتصف الليل. فتح جليل الباب وصعدا الدرج فلاحظا الإنارة في المطبخ وصوت نسائي ينبعث من الغرفة الثانية.. علم جليل أن مُساكِنَه في الشقة والذي يكتري الغرفة الثانية؛ قد أتى

[1] -"هذا العجب يضاعف من طاقتك"

كعادته للاستمتاع بليلة حمراء مع فتاة بشكل وعمر مختلف عن السابقة؛ فهذا الشخص لا يرسى على برج كما تقول إحدى الأغاني الشرقية فهو في كل مرّة على حال. لا يأتي كثيرا لكنه متى تمكّن من قنص أو قل صيد سمين أمام معهد أو كلية أو حتى مصنع خيّاطة؛ فإنه يطل هنا بوجهه القبيح، ويقضي نزوته ثم يغيب بعدها إلى أن تحين كبوة أخرى وهكذا دواليك...

كان جليل يعرف بعض التفاصيل عنه وعن وظيفته في سلك القضاء وأمور أخرى، فقد أخبره بها المكتري السابق الذي كان يسكن بالغرفة التي يسكن بها جليل الآن، كما أخبره أيضا أنه رغم ابتلائه المقيت هذا إلاّ أنه شخص يتعامل بأدب ويعرض المساعدة في ميدان وظيفته...

خرج الرجل مرتديا منامة حريرية يبدو أنها فصِّلت من قماش رفيع، فألقى التحية على جليل وصديقه اللذان كانا ما يزالان أمام باب الغرفة ينزعان أحذيتهما ليضعاها في الشرفة.. ردّ عليه جليل التحية بأدب واستفسر عن أحواله بلباقة وبلغة تتخللها كلمات وتعابير فرنسية، ثم انصرف كل إلى وجهته أو قل لارتكاب زلّته...

دخلا إلى الغرفة.. غيّر جليل ملابسه بمنامته ثم فتح الحقيبة وناول عبد النبي عباءة، ثم فتح النافذة قليلا لأن الجو كان ساخنا قليلا بالداخل. بدأ عبد النبي يخرج ما بالكيس البلاستيكي ويضعه على المائدة بينما خرج جليل إلى دورة المياه ثم عاد بعد هنيهة وقد أتى من المطبخ بصحون وبكأسين ذي ساقين تتخللان أصابعه، وضع ما بيديه على المائدة وقال: "يالاّه هرا برّعنا[1]!!". أجابه عبد النبي بطريقته الساخرة كعادته: "أجي دشّن الساقية باش تزكى.. نتوما الشرفا فيديكوم البركة". ردّ عليه جليل بنفس طريقته الساخرة: "تَتْطِير البَرَكَة حيت تَتْحْضَر الفرَّكَة[2]!!".. تعالت قهقهتهما، توجّه جليل قبل أن يجلس وشغّل جهاز الأشرطة (Hfi) وأدار قرصا مدمجا (CD) لموسيقى البلدي[3]، فقال له عبد النبي منتشٍ: "هديك..هديك..شوف شي ديسك مْتْرَّبْ[4]"...

خفَّض جليل من صوت الموسيقى قليلا حتى يتسنّى لهما الدردشة بهدوء وشرع يخرج ما تبقى في الكيس من

[1] -"هيا أكرم ضيافتنا"

[2] -الفرَّكة: تسمية يطلقها مدمني الخمور من الطبقة الشعبية على نوع من نبيد العنب الرديئ يكون معبّأ في قارورات بلاستيكية طويلة الحجم مضلعة تشبه قطة الخشب المضلع الذي يستعمل في غسل وفرك الثياب لإزالة الأوساخ منها.

[3] - موسيقى البلدي: موسيقى شعبية تتوجد بمنطقة الجنوب الشرقي المغربي

[4] -" اختر قطعة موسيقية تغري برقص حماسي يثير الغبار من شدة ضرب الأرجل على الأرض"

الفواكه الجافة والمكسرات ووضعها في الصحون، فهذه لا يستغنى عنها خلال الشرب ثم أزاح أوراق اللّف وأعادها للكيس ثم ناوله لعبد النبي الذي يجلس على الأريكة ليضعه جانبا.. كانا يناقشان دائما مواضيع سياسية أو ثقافية خلال جلساتهما وبين الفينة والأخرى يعرجان على أمور عائلية خاصة، فلا يخفي أحدهما عن الآخر شيئا.. بدأ عبد النبي يصبُّ في الكأسين، بين الفينة والأخرى، لنفسه ولنديمه جرعات "الباستيس" ويشعلان السجائر وهما يدردشان فيما يأتي على لسانهما من كلام وأخبار وقضايا...

بعد مدة، نهض جليل وخرج لاستفراغ متانته من الكحول في دورة المياه.. وبعد أن عاد؛ توجه مباشرة نحو جهاز الأشرطة وأوقف القرص المدمج الذي كان لا يزال يمرّر أغاني "بلدية" واحدة تلو الأخرى، ثم جرّ قدميه إلى خزانة الكتب وانحنى وأخذ حافظة الكمان وفتحها ثم أخرج الكمان ووضعه في مكان جلوسه على السرير ثم نزع القوس من مكانه وأخذ قطعة "الرزينة" ثم مرّرها على ألياف القوس يمينا ويسارا ثم أعادها لمكانها وأغلق الحافظة ووضعها في مكانها بالخزانة.

جلس وهو يدندن بصوت خافت بعد أن أخذ الكمان وكأنّه أوحي إليه في تلك اللّحظة بلحن أو جملة موسيقية يعيدها خشية أن تنفلت منه، ثم قال لعبد النبي: "نشوفو هد الألة العجيبة.. مدة هدي ما قسناها..!!"...

وضعها فوق كتفه وبدأ يمرّر القوس صعودا وهبوطا لكي يدوزن بعض الأوتار، ثم وضعها على ركبتيه وأخذ يزيد في شد ألياف القوس. حملها مرة ثانية وأحكمها بذقنه وهو يمرّر القوس وقد تغيّر صوت الأوتار وصفى النغم.. طلب منه عبد النبي: "شي تقسيم يدوي الجرح".. شرع جليل يعزف تقاسيم متنوعة متنقلا بين مقامات شرقية شجيّة؛ بينما تلهّى عبد النبي يصب لنفسه الشراب لكن هذه المرة بشكل مسترسل وهو يشجع نديمه، منتشٍ بما يحدثه قوسه من أنغام عذبة، ويناوله بين الفينة والأخرى كأسا ليروي المزيد من ظمئه، معلّقا بعربية فصحى على الزخارف اللّحنية التي تبدعها أنامل جليل: "أطربنا..!! أطربنا أيها الفنان الضائع!!"...

غمغم جليل ضاحكا.. وقد كانت هذه العبارة كثيرا ما يردّدها عبد النبي على مسمعه ليعبّر له عن إعجابه بموهبته وأدائه المتقن.. تماهى جليل مع سيل الأنغام المنساب من أنامله وشرع يعزف كوكتيل متنوع من مقدمات خالدات أم

كلثوم، وأنهى بالكوبليه الأول من رائعة "أمل حياتي"، عندها لم يتمالك عبد النبي نفسه فجهش بالبكاء على حين غرّة.. توقّف جليل عن العزف حالا ثم وضع ما بيده جانبا ثم أخذ القارورة فسكب لنفسه الشراب، تاركا صديقه ينتحب واضعا كفيه على وجهه.. شرب الكأس دفعة واحدة ثم قال له مبتسما: "ها أنت عاود سكرتي أزغبي!!"...

أزاح عبد النبي كفّيه عن وجهه وأخذ منديلا ورقيا ثم بدأ يجفّف دموعه التي تغالبه كلما أفرط في الشرب وأحسّ بالأمان مع نديمه. كان جليل يعرف عادته هذه كلما شربا معا، فهي ردّة فعل نفسية يفرّغ عبرها ضيقه واحتقانه الذي يتراكم بداخله لفترة من الزمن؛ وكلما أراد أن ينفك من هذا الإحساس إلا واستنجد بصديقه الذي يكون هو كذلك محتاج للتنفيس عن ضيقه واحتقانه أو هكذا كان يُشبَّه لهما الأمر...

كان يترك لنديمه المجال للتداعي الحر والتطهير الكامل، فيلذ بالصمت وقد يخرج من المكان متظاهرا بذهابه لدورة المياه، فاسحا له المجال ليبكي براحته وبالجُملة، فالبكاء بالتقسيط لا يدفع الضيق بل يحتاج المتباكي إلى ذرف دفق أو سيل منهمر من الدموع لكنس وتنظيف الروح، وقد

كان عبد النبي نفسه يعلّق على حالته هذه بهذه العبارة: "خاصني نسيّق ونخمّل دماغي[1]" وكان جليل يفهم هذه الشفرة عندما يردّدها في العلن.

عاد جليل من دورة المياه ثم جلس في مكانه بعد أن وضع الكمان في الحافظة وأعاده إلى مكانه في الخزانة ثم غيّر القرص السابق بقرص آخر وأدار الجهاز مجددا.. انبعثت موسيقى هادئة على شاكلة الموسيقى الكلاسيكية الغربية، سيمفونية من وتريات وكلارينيت وبيانو، بعدها صدح صوت العود الرنّان للفنان الكبير مارسيل خليفة الذي شرع يغني رائعته "ريتا":

بَيْنَ رِيتَا وعُيُونِي بُنْدُقِيَّة
وَالَّذِي يَعْرِفُ رِيتَا
يَنْحَنِي لِإِلَهِ العُيُونِ العَسَلِيَّة

أشعل عبد النبي سيجارة ثم سكب في كأسه ما تبقى من الزجاجة الأولى ثم شربه دفعة واحدة.. هازئا، يسأله جليل الذي همّ بفتح الزجاجة الثانية: "شكون عاود تاني تفكرتِ فقبيلتك؟".. متحاشيا الإجابة عن سؤاله، ضحك

[1] -"يلزمني أن أكنس وأنظف دماغي"

عبد النبي دون أن ينبث ببنت شفة.. كان عبد النبي كلّما أفرط في الشرب إلا واستحضر صورة أمه المتوفية رغم أنّه لا يتذكر سوى القليل عن قسمات وجهها لأنها ماتت منذ طفولته المبكرة، ولكنه كان في مثل هذه الحالة اللاشعورية يحدث شيئا في مخه، وتتهيأ له أنها تخاطبه أو تعاتبه أو ترغب أن تُسرّ له بشيء لا يدري ما هو؟ فقد أسرّ ذات مرّة إلى جليل أن هذا الطيف يزوره كلما تجاوز العتبة في الشرب...

كان جليل يفسّر له ذلك بمنطق علم النفس ويخبره أن النفس البشرية تتشكل عبر مراحل عمرية وتترسب بها طبقات سلوكية وأهمها ما وصفه عالم النفس النمساوي سيكموند فرويد بمرحلة الليبدو الأموية الحاسمة في تكوين الشخصية...

يسكب جليل لعبد النبي ثم لنفسه بعد أن فتح الزجاجة الثانية وقد أخذ دوره عنه هذه المرة في تقديم الكؤوس.. غيّر عبد النبي موضوع سؤال جليل، متحدثا عن مارسيل خليفة وعن هذه الأغنية وعن مختارات أخرى من أغانيه؛ فسأله: "هد القصيدة ديال محمود درويش ياك؟". ردّ عليه جليل: "واه، قصائد محمود درويش لا يتقن تلحينها وغنائها إلا مارسيل خليفة!!"...

حدّثه عبد النبي عمّا سبق أن قرأه عن هذه الأغنية التي تتغنى بهذه القصيدة الشعرية التي تحكي قصة حب بين شاب فلسطيني وفتاة إسرائيلية حال بين حبهما حالة الحرب والصراع الذي يرمز له الشاعر في القصيدة بالبندقية وهي رمز للعداوة والدم بينهما...

انتقلت الدردشة بعدها بينهما إلى موضوع الساعة وهو "الإرهاب" الذي تروّج له حكومة الصقور الأمريكية وعن تحريّاتها عن منفذي هجمات 11 سبتمبر 2001 وعن عزم أمريكا احتلال دول بأكملها في الشرق الأوسط والشرق الأدنى، كما فعلت في أفغانستان بدعوى مكافحة الإرهاب الذي ألصقته بالمسلمين رغما عن أنوفهم، بتواطؤ مع عملائها من المافيات التي تحكم البلدان العربية ومباركة أوروبا...

توقّفا عن الحديث قليلا، ثم همّ عبد النبي بالوقوف للذهاب إلى دورة المياه، فكانت المفاجئة غير المتوقعة؛ يفقد عبد النبي توازنه ثم يسقط أرضا فيتقيّأ كل ما احتساه من شراب...

نهض جليل بسرعة ثم خرج للبحث عن "بسينة" أو سطل يأتي به لكي يستفرغ نديمه ما تبقى بمعدته.. أسنده

على كتفه وقاده إلى دورة المياه.. عاد جليل بمجفّف وأخذ يكنس بركة القيء التي أخذت تسيح في اتجاه الباب.. انتهى من ذلك وأعاد وسائل التنظيف إلى مكانها ثم انتظر واقفا قبالة باب الغرفة صديقه ريثما يخرج من المرحاض ليطمئن عليه.. عاد عبد النبي وقد تماسك نفسه قليلا ثم قال له: "وقيلا حيت خلّطت..؟[1]" ثم أردف قائلا: "داكشي علاش!!"...

ارتمى على الأريكة للحظة وجيزة، ثم تمدّد منهكا كي يسترجع أنفاسه، عسى أن يزول عنه الغثيان الذي ما يزَل يعتصر معدته.. سأله جليل الذي لم يستطع خنق ضحكته: "هي غادي تخليني حاصل مع هذ القرعة وحدي؟"، يجيب عبد النبي بنبرة متشجعة، لا تخلو من تحدٍ مُتصنِّع: "هذي غير التَسْيِّقَة الأولى، مازال التَجْفِيفَة الَّاخْرى[2]!!"...

يائسًا من رفقة نديمه إلى نهاية السمرية، ضحك جليل وقد عرف أن عبد النبي لن يقوم من مكانه ذاك حتى الصباح، فالجلسة الخمرية تنتهي بإعلان المعدة عن رفضها المزيد من الشراب عندما يتقيأ المرء.. تركه جليل دون أن يلحّ عليه في الكلام، وسرعان ما غطّ عبد النبي في نوم عميق.. عمّ

[1] -"حدث هذا ربما لأنني جمعت بين الجعة والنبيد"
[2] -"هذا مجرد الغسيل الأولي للمعدة يلزم تكرار العملية"

صمت قاتم في الغرفة بعدما كانت تنضح بلهو السّهر وأنس السّمر إلا من شخير خفيف ينبعث من منخري عبد النبي وَزَنَتْ الصّدفة إيقاع شهيقه وزفيره على مترنوم (Métronome) تكتكات عقارب ساعة المنبه على المنضدة.. شعر جليل بتكتكاتها تقرع طبلة أذنه أكثر فأكثر، وكأنها تحصي ثواني ليلة متأخرة.. لعلها بداية حالة إلهامه الموسيقي لولا أنّ صديقه الكمان كذلك غطّ في سباته في حافظته، كما فعل صديقه الأدمي...

نظر إلى ساعة المنبّه على المنضدة، تجاوزت عقاربها الثالثة صباحا بقليل.. سكب قليلا من الشراب في الكأس الذي بدا أمام عينيه وكأنه طائر الملك الحزين يقف على ساق واحدة، ويلوي عنقه ومنقاره الأصفر الفاتح، معلنا عن حزنه الأبدي.. شعر بوحشة المكان والزمن، رشف رشفتين من الكأس فتوقّف بعدها...

قام فغطّى ضيفه بغطاء ثم فتح النافذة قليلا لتهوية الغرفة.. ناكساً رأسه، عاد إلى سريره حزينا كما يفعل طائر الملك الحزين الذي جفّت من حوله المياه والأحواض والبحيرات.. استلقى كذلك ليخلد للنوم...

****

****

منتصف شهر يونيو 2002...

"يَسْتَهَلْ مَنْ يَبْنِي سُورُه بْغِيرْ سَاسْ
يَسْتَهَلْ مَنْ يَدْخُلْ فْ الحَرْبْ دُونْ صَارَمْ
يَسْتَهَلْ مَنْ يَدْخُلْ البْحُورْ دُونْ رِيَاسْ
يَسْتَهَلْ مَنْ يَطْلَعْ العْلُو بَلا سْلاَلْمْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

في باحة مقصف الكلية.. يجلس جليل منزويا إلى طاولة وأمامه فنجان قهوة، يتصفّح جريدة وهو يدخن. هذه المرّة، يبدو على ملامحه الإرهاق والتعب وقد بانت عليه علامات النحافة أكثر.. لقد تعرّض لوعكة صحية منذ شهرين غيّرت من إيقاع حياته ودراسته. لم يستطع أن يجتاز الامتحانات في هذه السنة لأن مرضه المفاجئ قد عطّل وتيرة إعداده للامتحان وبالتالي تعذّر عليه المرور للسنة الأخيرة من سلك الإجازة...

يرن هاتفه بصوت دعاء جميل.. أخرجه من جيبه ثم أجاب المتصل والذي يبدو أنه يستفسر عن حالته الصحية، أنهى جليل المكالمة ثم أعاد هاتفه إلى جيبه، منتظرا وصول

المتصل به، أخذ سيجارة ثانية وأشعلها وارتشف من فنجان القهوة وهو يدير صفحات الجريدة إلى الصفحة الأخيرة، وبعد أن طواها إلى نصفين متوازيين، أخرج قلمه وشرع في ملء خانات الكلمات المتقاطعة لتزجية الوقت ريثما يصل عبد النبي الذي جاء لكي يزوره ويسأل عنه...

منذ أن أصيب جليل بالتهاب شديد في المعدة ألزمه السرير لفترةٍ للخضوع للعلاج؛ لم يجد أحدا بجانبه سوى عبد النبي الذي كان يرافقه إلى المصحة لإجراء الكشوفات والتحاليل الضرورية، كما أنه قضى بصحبته الأيام العصيبة الأولى لمرضه، خاصة وأنّه وصل إلى درجة حصول ما يشبه نزيف في المعدة بدأ على إثره يتقيّأ خليطا من سائل أحمر اللون كلما عصفت به تقلّصات المعدة والمريء...

لم يعُد يستطيع أكل جميع المأكولات كما كان يفعل سابقا، بل يكتفي فقط بأطعمة ليّنة أو مخثرة كالحساء والخضر المطحونة وعصير الفواكه ومشتقات الحليب وغيرها. أخبره الطبيب المختص في الجهاز الهضمي أن حالته لا تدعو للقلق الزائد، وشخّص حالته بأنها مجرد التهاب للمريء وجدار المعدة، وستزول هذه الأعراض بعد الالتزام بالدواء والحمية بشكل صارم...

وصل عبد النبي وصافح جليل الذي لم يرَه منذ مدة، لأنها كانت فترة الامتحانات والكل منشغل بهاجس الإعداد لاجتياز المواد والتسجيل للموسم القادم. جلس إلى جواره وكان ما يزال بعدُ يدخن ويشرب القهوة.. لم يرُق الأمر لعبد النبي الذي علّق بنبرة لا تخلو من عتاب على ما يقوم به جليل: "آش هد شي؟ تاني القهوة والكارو؟". أجابه جليل بنوع من الاستسلام أنه لم يجد سبيلا إلى التوقف عن التدخين بعد محاولة أسبوعين فقط، ضاربا تعليمات وتحذير الطبيب عرض الحائط، وإلاّ فإن الأعراض ستتفاقم وقد ينتج عنها نزيف لا قدّر الله لن ينفع معه سوى التدخل الجراحي وهو أمر بالغ الخطورة...

سكت جليل قليلا وقد ألقى بعيدا بما تبقّى من السيجارة التي بين أصابعه.. يبدو أنّه لم يستطع الكف عن التدخين واحتساء القهوة لأن هاتين المادتين أصبحتا دامنتين لديه، توقّف عنهما في أوج المرض فقط ثم استسلم لتعاطيهما من جديد.

أخذ عبد النبي منه علبة التبغ وسلّ منها سيجارة ثم أشعلها وقال له: "جليل.. خَصَّكْ تحبس بعدا القهوة على الأقل!!"، ثم أضاف: "راك ضعافيتي بزاف!!". أجابه جليل

هازئا: "إيوا هذي هي الفورمة ديال اللي عايش بدانون والنخّالة[1]".. استرسل عبد النبي يستقصي عن حالته الصحية وعن موعد زيارة الطبيب وعن التزامه بآجال العلاج والدواء وغيره من الأمور الخاصة...

نظر جليل إلى هاتفه.. كانت الساعة تشير إلى منتصف النهار. قاما من مكانهما وهمّا بالخروج من الكلية التي كانت بها حركة شبه منعدمة، لأن جميع الامتحانات انتهت، وهذه فترة مفتوحة فقط للتسجيل وسحب الشهادات والوثائق الجامعية بالنسبة إلى الطلبة.. وهُما يمشيان في الممرّات يمينا ويسارا، سأله عبد النبي عن كلثوم..؟

سكت جليل قليلا.. أخبره بأنها سافرت إلى إسبانيا.. لقد بعثت لها أختها المقيمة هناك دعوة للزيارة، فسافرت عقب انتهائها من الامتحان وقد أسرّت له أنها لا تنوي الرجوع وستحاول الحصول على إقامة دائمة، لقد وعدتها العائلة هناك بأن تتدبّر أمر عقد عمل أو إيجاد حلاّ ما لتسوية وضعيتها بعد ذلك...

[1] -"طبيعي فهذه هيئة من يقتات فقط على الزبادي ونخالة القمح"

فتح جليل الباب.. دخلا إلى الغرفة ووضعا ما بأيديهما على المائدة، ثم غيرا ملابسهما ثم توجّها إلى المطبخ لإعداد وجبة الغداء. قال له عبد النبي: "هذ النهار ندير معك الرجيم[1]" محاولا أن يثير شهية جليل الذي انحبست شهيته منذ مدة ولا يأكل إلا لقيمات فقط عسى أن تستقر في بطنه. اقترح عليه أن يُحضِّرا معا سَلَطَة ملكية غنية بالخضر والفواكه والرز مع عصير أفوكادو.. لم يعترض جليل عن الأمر، أشار إليه أن يبحث في خزانة المطبخ عمّا يلزمه...

شرعا يعدان الغداء معا وقد أعاد عبد النبي من جديد إثارة موضوع سفر كلثوم، وسأله إن كان هذا الأمر يحزنه فعلا.. صادقه جليل القول، أنّه يتمنى لها حظا سعيدا.. وأنّ الصداقة الخالصة هي أن يحمل الشخص في قلبه كل الودّ والخير لمن جمعته به علاقة إنسانية صادقة يوما ما ثم انصرف بعدها كل واحد إلى حال سبيله تحت ضغط ظرف قاهر أو حتى بحثا عن مصلحته الشخصية التي قد يدرك أنها ليست مع هذا الشخص الحاضر.. وأنّ الحياة مستمرة ولا يجب التوقف عند محطة واحدة، حتى ولو ألزمت الظروف المرء النزول في إحداها.. فأنَّى يتبيَّن له أنّها غير الوجهة التي تناسبه.. هناك ألف فرصة وفرصة لامتطاء قطار الحياة في

[1] -"سأنضبط هذا اليوم للحمية التي تتبعها في الأكل"

رحلة جديدة، كما تقول أغنية عبد الهادي بلخياط؛ ثم أخبره وصية أحد الحكماء:

- "تظل ذاكرتك ملكا لك، فإذا استوطنتها امرأة صارت ملكا لها"

بمعنى أنّ:

- "العاشق يصير جسدا بلا ذاكرة.. يا صديقي العزيز!!"...

****

****

صيف 2002 ...

"آشْ مَنْ عَارْ عْلِيكْمْ يَا رْجاَلْ مَكْنَاسْ
مْشَاتْ دَارِي فَحْمَاكُمْ يآ أَهْلْ الكْرَايْمْ
سَبْتِّي وَهْلاَكِي لَامَانْ فْ بَنْ آدَمْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

حان فصل الصيف.. لم يسافر جليل لقضاء العطلة بفرنسا كما اعتاد على ذلك كل عطلة صيفية، فقد دخلت أسرته لقضاء الصيف بالمغرب وكانت فرصة لقضاء هذه الفترة وإيّاهم.. بعد مدة من مرضه، ورغم أنّه تماثل للشفاء نسبيا بعد أن التزم بنصائح الطبيب، إلا أنّه أصبح يشعر أن نفسيته تسوء أكثر فأكثر، وبدأ يعاني من تقلب دائم في مزاجه ويميل للعزلة والاختلاء بنفسه للتأمل الذاتي.. حدث تغيّرا في سلوكه فلم تعد آلته الموسيقية تستهويه للتسلية ولاستمتاع كما كانت في السابق، كما أنه بدأ يستثقل قراءة الأدب الذي كان يهواه كذلك...

أصبح جليل ملتزما أكثر فأكثر بالعبادات، يحافظ على الصلوات في أوقاتها ويصوم بعضا من أيام الأسبوع لغايتين

أولهما كوسيلة لعلاج التهاب المعدة وثانيهما لاغتنام أجر الصيام، كما أصبح يواظب على قراءة القرآن للتخلّص من الضجر والكآبة الخانقة التي استوطنت ذهنه...

كان تغيّره المفاجئ هذا مثار استغراب عائلته ومحيطه الاجتماعي الذين بدا لهم أن هذا الأمر غير عادي، فمنهم من رأى في الأمر أنه تسمُّم أصيب به عبد الجليل ومنهم من أرجع ذلك إلى أعمال شعوذة ودجل ذهب ضحيتها ومنهم من ربط ذلك بأمراض عقلية متنحية في جينات عائلته ومنهم ومنهم.. فانهالت على عائلته الوصفات الطبية الشعبية العلاجية والاقتراحات سواء من قريباته من نساء العائلة أو حتى نساء البلدة.. ومنهم من نصحه بزيارة الأولياء والأضرحة...

لم يهتم جليل بكل هذا الكلام الذي تتداوله الأسرة حول مرض جهازه الهضمي وحالة اكتئابه الدائمين، فاكتفى بما هو طبيعي طبي علمي من الوصفات واتباع حمية علاجية ثم غلق غيره من الأبواب...

في يوم من الأيام.. رنّ هاتف جليل، فأجاب المتصل الذي لم يكن سوى عبد النبي.. سأله عن حالته الصحية وعن أحوال العائلة ثم سأله إن كان قد بلغ إلى علمه من نشرات

الأخبار حملة الاعتقال التي تجريها الشرطة القضائية لمجموعة من الناس وجّهت لهم تهمة تكوين خلايا جماعات إرهابية؟؟ أجابه جليل بأنّه شاهد بعض التقارير في نشرات الأخبار لكن من دون معرفة التفاصيل...

آنئذ، أخبره عبد النبي أن قريبا له كان من بين هؤلاء المعتقلين وتُهمته أنه يحضر بعض الدروس الدعوية في أحد الأماكن التي يعتبرها الأمن الداخلي مشبوهة، وقد تمّ استدعاء كل الأشخاص المقربين منه وكان من ضمنهم عبد النبي كذلك للتحقيق معه، وبعدها تمّ الإفراج عنه بعد سماع أقواله، لكنّه أسرّ له أن هذا الاستدعاء سيضع عبد النبي نفسه في دائرة شك جهاز الاستخبارات الداخلية وقد تتوسّع هذه الدائرة لتشمل أشخاصا آخرين من قريب أو من بعيد..

أنهى عبد النبي المكالمة مع جليل وطرق مفكرا:

"ماذا يقصد عبد النبي بكلامه هذا..؟ 'قد تتوسع دائرة الشك لتشمل أشخاصا آخرين من قريب أو من بعيد..؟' لا بد أنه يلمح إلى احتمال أن يصير كل معارفه وأصدقائه يثيرون شكوك الجهاز الاستخباراتي..!! لابد أن أتقصى بعض الأخبار التحليلية التي تبثها القنوات الإخبارية المختصّة فهم يحلّلون الحوادث بشكل واضح..!! لابد أن أطّلع على حيثيات هذه

القضية، فالأمور تنذر بالاتجاه نحو الأسوء في قادم الأيام، لطفك يا ألله!!"

نشرات الأخبار والبرامج التحليلية

أمريكا تتهيأ لأكبر غزو في القرن الواحد والعشرين وستدمر دولا كاملة في الشرق الأوسط ولا بدّ أن تجيِّش جميع الأنظمة العالمية وراءها بمن فيهم الضحايا أنفسهم؛ لهذا الهولكوست الصهيو-أمريكي الجديد.. الدول تتهيأ لاستصدار قوانين مكافحة الإرهاب وتمريرها قصرا في برلماناتها، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ لا بد من فبركة سيناريوهات وتوريط جهات معينة وربما تدفعها لاقتراف أفعال طائشة تبرر استصدار وتمرير ما تريده السلطة رغما عن ميثاق حقوق الإنسان والديمقراطية المصطنعة، وذلك لآخراس أصوات الشعوب وقمعها تحت ذرائع لا أصل لها من الصحة!!

لابد أن هذا السيناريو مفروض على كل الدول وهي ملزمة بتنفيذه، وقد يكون المغرب معني بهذا الأمر وأكيد ستحل الكارثة وستتراجع حقوق الإنسان على إثر هذه الأجندات وستعود عقلية سنوات الجمر والرصاص إلى المشهد من جديد، وربّما تكون أكثر شراسة فمن كان بالأمس

يلوّح بعصا حقوق الإنسان ضد الحكومات أصبح اليوم هو من يحثّها على خرقها تحت ميثولوجية مقيتة سمّاها "الإرهاب الإسلامي"...

حاول جليل أن يستجمع هذه الخلاصات انطلاقا من تحليلات مختلفة لمحللين سياسيين وخبراء جيوسياسيين وحقوقيين تداولتها وسائل الإعلام في مناقشتها للتحرك الأمريكي منذ هجمات 11 سبتمبر 2001، ولأنه ربما أصبح معنيا بالأمر أو هكذا تصوّر المسألة، فلا بد من البحث في هذه القضية وفهم هذا الشيء الذي قد يتهم به الشخص بين عشية وضحاها...

فأمريكا رصدت مليارات الدولارات لهذه الحرب التي تعتبرها حرب بقاء أو فناء الحضارة الغربية أمام غول أو بعبع "الإرهاب الإسلامي"، وقد صرّح جورج بوش رئيس أمريكا آنذاك في إحدى خطبه أنه سيقود "حرب مقدسة تكون حرب صليبية ثانية"، قبل أن يستدرك مستشاريه زلّة لسانه هذه أو نيته المبيّتة والمبطنّة، فعاودوا مُداراة هذه العبارات بمراوغة ولفّ ودوران في التعبير على تصوّر متفقين عليه سرا دون وصفه بالاعتذار للمسلمين؛ ولماذا سيعتذر؟ ولمن؟ أَلِأولئك الذين تواطؤا معه في الخفاء وتحت الطاولة؟ أم

لعدويْهِما اللّدودين الأول الراحل صدام حسين العراقي والثاني الراحل الأخ معمر القدافي الليبي؟

أمريكا تقود حربا هي تماما كما وصفها رئيس حكومة الصقور "حرب صليبية مقدسة"، ولن يرد بأسها إلا ربّ المسلمين، أمّا المنتسبين لهذا الدين فكل يخشى جرجرته مكبلا إلى أكبر سجون القرن الواحد والعشرين بجزيرة غوانتنامو في عرض بحر الكاريبي؛ حيث الداخل إليه مفقود والخارج منها مولود ولو في هيئة شيخ هرم من جرّاء ما يلاقيه الأسرى من محن وتنكيل، كما حكى الصحفي السوداني سامي الحاج في مذكرة اعتقاله أو رواية اعتقاله "غوانتانمو" التي تحمل عنوان نفس المعتقل...

لا شك أنّها ضخّت أموالا ضخمة للدعم اللوجستيكي لحلفائها من حكومات الدول المعنية بما فيها الدول العربية والإسلامية وقد شرعت تبث إعلانات على الشاشات بمكافآت سخية تقدر بمئات ملايين الدولارات لمن يدل على مكان اختباء زعيم القاعدة ومناصريه، وهكذا أصبحت هذه المسألة رهان مغري وتجارة قذرة يكسب من ورائها عديمي الإنسانية من المرتزقة، سواء أكانوا ضباط أمن أم ممتهني السياسة أم حتى بعض العناصر من داخل الحكومات؛ أموالا

كثيرة مقابل تقديم حشود من الناس أُلصقت بهم تهمة الإرهاب كأكباش فداء وعربون حسن نويا اتجاه سياسة أمريكا في هذه المناطق...

ازداد وضع جليل النفسي تعقيدا.. فإلى جانب وعكته الصحية والنفسية تنهال عليه أخبارا سيئة لا شكّ أنّها ستخلق له متاعب إضافية هو في غنى عنها.. ظل يترقّب طيلة المدة أن يأتيه استدعاء أو أي إجراء قانوني ذو صلة بهذه المصيبة؛ فلربما يكون عبد النبي خلال مثوله أمام الضابطة القضائية لأخذ أقواله وتوثيقها في محاضرها بخصوص علاقته بقريبه المعتقل، قد يكون عن حسن نيّة أدلى بلائحة من أسماء أصدقائه في الدراسة عقب مُسألته عن أسماء رفاقه في الكلية وفي الحي الجامعي، وأكيد سيأتي على ذكر اسم جليل لأنه صديقه الحميم، جمعتهما سنوات الدراسة في الكلية...

ذهبت به الظنون بعيدا وتسلّطت عليه وساوس قاهرة قد تكون من أعراض داء المعدة التي زادت من الطين بلّة.. لم يحصل شيئا من ظنونه هذه ولكن قد تكون عملية المراقبة سارية المفعول عن بعد وهو لا يعلم...

كان دائما يصارع وساوسه القهرية التي تشدُّه إلى التفكير السلبي.. ولكنه يظل متوجسا قلقا طوال الوقت من شيء لا يدري ماهو..؟ فالنص القانوني واضح: "المتهم بريء حتى تثبت إدانته"، لكنه في مقابل ذلك يدرك أن أجهزة الدول التي لها تاريخ سيء في خرق حقوق الإنسان غير معنية بهذه المقولات الحقوقية الإنجليزية، فالعكس هو الذي يحصل غالبا، حيث أنّ المتهم مذنب ومدان حتى تثبت براءته التي قد تُكشف بعد أن يصير عجوزا في السجن وإذا ما وافاه الأجل، فعليه أن يثبت براءته في العالم الآخر بعد أن ينتقل جلاّده إلى هذا العالم.. ضحك جليل رغم غصّته مردّدا في نفسه: "من شر البلية ما يضحك".

****

****

مارس، 2003

"طَوِيتْ القَلْبْ الحَزِينْ عَلَى هَمُّو
وَصَبَرتْ لَمَا قْضَى وقَدَّرلِي البارِي
حَدِّي وعَزِّي وحُرْمِتي إلَّا فْ دَارِي
العِينْ مِيزَانْ والقَلْبْ لِلقَلْبْ فازَعْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

ذات يوم من أيام مارس من سنة 2003.. تجمّدت أطراف جليل وهو منشد إلى التلفاز يتابع بتركيز زائد مشاهد قصف مدينة بغداد في جُنح الظلام، تبثّها قناة الجزيرة الفضائية المختصّة وثلّة من الخبراء العسكرين والمحللين السياسيين يعلقون على ما يجري...

نشرات الأخبار والبرامج التحليلية

لقد ابتدأ الغزو الأمريكي للعراق وهذه هي الضربات الجوية الأولى التي سيعقبها اجتياح بري للإطاحة بنظام البعث ورئيس العراق وتنفيذ الأجندة الأمريكية 'الشرق

الأوسط الجديد' وذلك بتفجير الوضع من الداخل وإحداث 'الفوضى الخلاقة' وتفتيت المنطقة إلى كانتونات ودويلات على مقاس إسرائيل...

سمّاها بعض المحلّلين قيام الحرب الخليجية الثانية التي ستزيح بها أمريكا الخريطة الجغرافية والسياسية القديمة التي نتجت عن اتفاقيات دول الانتداب البريطاني والفرنسي للمنطقة كـ 'سايس بيكو' و"إيكس ليبان" منذ ثلاثينات القرن العشرين، وسترسم خريطة جديدة للوطن العربي وهذه المرّة بقوة سلاحها وترسانتها الحربية المتطورة وحنكة حليفتها إسرائيل على المستوى الاستخباراتي والحربي الميداني في المنطقة...

حاول جليل أن يستوعب جيدا ما سمعه من تحليلات حول ما جرى في التغطيات المباشرة في القنوات الفضائية.. غرق في تفكير عميق مرّة ثانية:

"..لابد أن الأمور ستسوء كثيرا لا محالة في الأوطان العربية، فأمريكا خرقت القوانين الدولية وداست قرارات الأمم المتحدة وهدّدت أوروبا إن هي اعترضت أو نبت بكلمة ضدها بل وجرّت دولا كبيرة في أوروبا إلى ساحة الحرب في العراق؛ هذا يعني أن كل الأنظمة العربية ملزمة بتنفيذ أوامر

أمريكا وإلا سيطاح بها بواسطة تدخلها العسكري وإثارة الفوضى بهذه البلدان، وهنا بطبيعة الحال ونظرا للاحتقان الشعبي بسبب سيّادة الديكتاتوريات، فالخطر قائم بالنسبة إلى هذه الأنظمة التي باتت ملزمة بقمع وتقتيل أبناء شعوبها تحت مبررات "مكافحة الإرهاب" لثني الشعوب عن مناهضة ما تقوم به أمريكا في أوطانهم وكذلك ضمان الحفاظ على بقائها في السلطة..."

****

****

بعد شهرين، ماي 2003...

"قْلُوبْ اقْسَحْ مَنْ الحْجَرْ والوْجُوهْ صْلَابْ
واقْفَالْ الهَنْدْ لاَ انْطَرْشَتْ بِمْطَارْشْ
واللهْ مَا بْقَاتْ حُرْمَة لِلدْرَاوْشْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

كان يومه السبت 17 ماي.. استفاق جليل متأخرا من النوم. أمام مائدة الفطور، شغَّل التلفاز على إحدى القنوات الإخبارية العربية.. كانت تبث مشاهد من أماكن مختلفة بمدينة الدار البيضاء بها هلع كبير وأثار دماء وتفجيرات على الجدران وسط مطعم وأمام فندق نفِّذت ليلة الأمس.. استمر يتابع التغطية الصحفية وتحليل أحداث ما وقع ليلة الجمعة، فعلم أنّ مدينة البيضاء كبرى المدن المغربية والشريان الاقتصادي للبلاد تعرّضت لاعتداء إرهابي، تمّ بواسطة عمليات انتحارية متفرّقة بأحزمة بشرية متفجّرة متحركة...

نشرات الأخبار والبرامج التحليلية

تذكّر ما كان بعض الخبراء يقولونه في تحليلهم وقراءاتهم الاستشرافية للأحداث منذ بضعة شهور وقد أدرك أن هذا الأمر استخباراتي مفبرك لتمرير قانون مكافحة الإرهاب توّا في البرلمان المغربي ودون المهل القانونية والمشاورات التي تسبق تمرير القوانين وإصدار التشريعات كما تنص عليها فصول الدساتير المكتوبة وغير المفعّلة...

مع الأسف الشديد، لقد شرعن ما حدث في 16 ماي بالدار البيضاء للسّلطة أن تعود إلى أساليب المقاربة البوليسية التي كانت سائدة في سبعينات القرن العشرين الماضي لتمارسها من جديد على المواطنين كافة، بسبب جرم قلّة قليلة أو ربما لا توجد من الأصل ولكن تمّ تجنيدها لهذا الأمر لتعطي للسلطة شرعية انتهاك حقوق المواطنين...

هكذا زُجّ بالعشرات من ذوي التوجهات الإسلامية المحافظة ممّن استفادوا كباقي التيارات اليسارية الراديكالية خلال السنوات الأخيرة من جو سياسي غير إقصائي سمح للكل بممارسة حقّه الدستوري في التنظيم السياسي والإيديولوجي المشروع، وبذلك تمّ القطع مع الماضي البئيس ورسم خريطة طريق لإحداث مناخ سياسي جديد قوامه

الديمقراطية والتعددية وبناء منظومة حقوقية ناشئة تتطلع إلى دولة الحق والقانون...

مع كل أسف، لقد حصل نكوص عن هذا المشروع الديمقراطي الواعد وأصبح الكل الآن يثير شك السلطة سواء الإسلاميون أو غيرهم. ولهذا لا بد أن يثبت من بيدهم السلطة لأمريكا تنفيذ الأجندة وإلا سيكون الحساب عسير. اشتغل الجهاز الاستخباراتي بكل قسوة فزجّ بأناس في السجون لمجرد أن أدلى أحد ما بتصريح صحفي أو تلفّظ بجملة في خطبة على منبر في مسجد أو عبّر عن رأي شخصي في مكالمة هاتفية تم التنصّت عليها أو.. أو.. وكلها مجرد أقوال وأراء لم تتحول إلى حجج وبراهين تدين مقترفيها...

هكذا حُشرت الآلاف من أسماء المواطنين الأبرياء في لوائح سرّية كإرهابيين محتملين أو كمتعاطفين مع هذه الإيديولوجيا، وهنا أصبح كل من له حساب شخصي أو خلاف مع أحد ما في السلطة حتى ولو كان مُقدّم أو شيخ أو مخبر من درجة الصفر في الجهاز يزجّ بأسماء هؤلاء الأبرياء للانتقام منهم وتعطيل مصالحهم وفرملة حياتهم عن آخرها ومحاصرتهم في الداخل والخارج...

هكذا أُوكلت عملية صناعة واختلاق سيناريوهات لخبراء أمنيين أدمنوا على مشاهدة أفلام الجاسوسية الأمريكية وقراءة قصص بوليسية، فتدربوا على صياغة قصص واهية تُعرض في نشرات الأخبار على مرأى ومسمع شعب مغلوب على أمره، أفقده الجهل والأمية والفقر والمرض إنسانيته ومواطنته، وصار أقرب إلى شيء آخر منه إلى الإنسان، وصار كل من يشكّك في ما تقوم به السلطة من فبركة أو اختلاق ساذج ومغرض هو إرهابي نائم يعلن ولاءه للقاعدة وما سيأتي بعدها من تنظيمات ذات نفس التوجّه...

ملأت التقارير الصحفية البوليسية الأبواق تزف تارة خبر اعتقال عنصر إرهابي يدعى "كذا" ولكن لقبه الحركي هو "أبو كذا"، وقُدِّم للرأي العام في شكل صورة كاريكاتورية مقرفة ومشمئزة، فهو شخص أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، هو الفاشل المنقطع عن الدراسة بعد ثلاث أو أربع سنوات في مدرسة ابتدائية قرب حي صفيحي عشوائي "كاريان"؛ وتارة أخرى يقدّم شخص آخر بتسمية أو لقب فظ منفِّر حتى من سماعه، ويُشكّكون في نسبه لأبويه، فلعلّ أمه كانت عاقرا فسرقته خلسة من مستشفى أو اشترته من أم عازبة خافت الفضيحة فتخلَّت لها عنه؛ فتسألوا كيف يصح أن يصبح هذا

الشخص الهجين أميرا على لقطاء آخرين يسعون فقط لتدنيس طهارة الإسلام؟...

هكذا تمّ دسّ معلومات استخباراتية قد تكون بعضها صحيحة ولكن قد تكون أيضا محشوة بتلفيق وكذب لغسل أدمغة شعب غالبيته العظمى من الأميين وما تبقّى منه حاربوا أميتهم وفقط، وكان الهدف من وراء ذلك هو كسب صمت شعبي مطبق عن الجهر بكلمة حق؛ كلمة "لا" لظلم ولعدوان فرضته أمريكا عليهم فقط لأن قدر بلدانهم جعلها في منطقة ثروة طاقية مهمّة وفي موقع استراتيجي وسط الكرة الأرضية، والأهم في ذلك أنّها مشاطئة لطرق الملاحة البحرية الدولية وهذا ما يزعجها...

هكذا مع كل أسف، الإفتاءآت الآتية من الخارج لا يمكن مناقشتها، فلا بد من تنفيذها فورا من طرف الدول التي لا تملك قرارها بيدها سواء لضعفها أو لتواطؤ حكامها، وهذا ما برّر لزمرة من ممثلي مصالحهم وليس ممثلي مصالح شعوبهم؛ التي هي براء منهم، في مجالس نواب الأمة، أن يمرروا قانونا كقانون مكافحة الإرهاب؛ مع العلم أن ما تقوم به هذه الأخيرة منذ استلائها على الحكم في هذه الدول لم يكن سوى جرائم هي أكثر من الإرهاب الحقوقي والسياسي

والاجتماعي والاقتصادي ضد شعوبهم المغلوبة على أمرها، ولهذا فكان الأجدى بهم أن يملكوا الشجاعة أكثر ويسمون الأمور بمسمياتها ويقولون (قانون مكافحة الإسلام)...

****

الفصل الثاني

جنوب المغرب، 2007

"نَحْمَدْ الله عَمْرِي سَعْدِي مَنْ الْخِيْر لاَ خَابْ
بَدَّلْ لِي الكَرِيمْ بِالرَّاحَة تَعْبِي
ورَزَقْنِي فْ الْحَيَاةْ الأَجَرْ والثْوَابْ
وسَلَّطْ علَى عْدَانا الحْسَابْ والعْقَابْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

بعد تعثّره في الدراسة دام لثلاث سنوات، استطاع جليل أن ينهي دراسته بالكلية ويحصل على إجازة في الأدب كباقي أقرانه، كما تقول إحدى أغاني مجموعة ناس الغيوان: "وقريت كاع اللي قرو قراني[1]". ظل بعدها يتقدم لمباريات التعليم ويحاول التسجيل في سلك الماستر لكن بدون جدوى ولأسباب مبهمة.. أدرك بعدها أن هناك أمرا مقصودا ولكن ما

[1] -"وتعلّمت في المدرسة كباقي أقراني من أولاد الشعب"

هو؟ هذا لا يعلمه إلاّ الله، فالوضع ليس أكثر من "لن تموت فيها ولن تحيا"...

قرّر بعدها أن يغادر المغرب وطنه الذي أحبّه ولم يفكر يوما ما في إلحاق الأذى به، لأنّه يؤمن بحبّه حتى النخاع بل إنّه بالنسبة إليه هو الشرط السابع الذي يضيفه إلى شروط الإيمان الستة المتعارف عليها في عقيدة المسلمين، كما قال الرسول الكريم: "حب الأوطان من الإيمان" ومن يقايض محبته لوطنه بمصلحة أو وظيفة أو منصب أو مأذونية أو غيرها من المصالح الدنيوية المادية، فحتما سيبيع هذا الوطن بأبخس الأثمان وأتفه المآرب في أول منعطف، وقد رأينا كيف فرّ رؤساء وكبراء دول عندما أحسوا بتهديد حياتهم فكيف بمواطنين عاديين...

شعر جليل أن أبناء الوطن الشرفاء هم من يحاربون في ديّارهم ويحاصرون وينكّل بكل من لا يرضى بواقع ظالم فرض عليه.. فكر بجديّة هذه المرّة أن يلتحق بعائلته المغتربة بالمهجر رغم أنه قد خُيِّر في البقاء للعيش نهائيا بفرنسا منذ أن رافق العائلة منذ مدة طويلة، لكنّه ومنذ صباه كان ينتابه شعور أن العيش في غير وطنه عذاب قاسي ولا يهمّه أي وضع اقتصادي سيكون عليه بالمغرب.. كانت تتملكه قوّة

داخلية أو جاذبية تشدُّه إلى الوطن لا يعرف لها تفسيرا وقد فضّل البقاء في المغرب وخوض الحياة ببساطتها مع جميع بسطاء الوطن حتى لفظه أو قل بصقه الواقع في هذه اللّحظة التي فكّر فيها بالرّحيل إلى لأبد...

طرق جليل مفكرا مليا:

"..لست أدري، لماذا في كثير من الأمور تجري الرياح بما لا تشتهي السفن؟ كما يقول المثل، أو لماذا تتنكّر الأيام لمن كان متصالحا معها؟ لقد شهد التاريخ لأسلافي بحب الوطن والتضحية من أجله، فقد روت لنا الوالدة أن جدّها قد استشهد في غارة "واقعة الرِّجْلْ" سنة 1909 خاضها رجال جيش التحرير الوطني بالجنوب الشرقي ضد المستعمر الفرنسي عند توغّله من شرق البلاد، بمنطقة تدعى "الرِّجْل" وهي نفس التسمية التي تحملها هذه الموقعة، كما أن جدّي من والدي أرّخت له صورة تاريخية بإحدى المجلات سنة 1975 وهو في طليعة ركب المحرّرين للأقاليم الصحراوية في مسيرة الالتحام وهو ماسك بمصحف يقرأ فيه آيات قرآنية بقلب خاشع ليّنت الأسلاك الشائكة وصهرت الحواجز الوهمية التي فصل بها الاستعمار الإسباني أجزاء تراب الوطن..."

هذا ما وصله من التاريخ، ولكن أليس ما شهد عليه وما يزال يشهد عليه الآن هو حب الأب للوطن؟ فهو الذي قضى سنوات طوال بالمهجر يشتغل بدون كلل ولا تعب ويحوِّل كل سِنت من ماله بالعملة الصعبة إلى الوطن ولا يستعمل منه سوى النزر القليل في البلاد التي وفّرت له هذا الحق الإنساني وقد حرم منه في وطنه، في حين أن هناك في الطرف النقيض في الوطن من يقوم بعملية معكوسة ويحوّل هذه العملة الصعبة لصالحه ويضعها في أرصدته البنكية الخارجية، هذه العملة الصعبة التي يتعب من أجلها رجال أحبوا وطنهم وأرادوا أن يساهموا في تنميته وهم غير مجبرين على ذلك، مع أنه يمكنهم استثمار مدخراتهم في هذه البلدان المضيفة بكل أمان وأكثر من أي مكان آخر، لكن شعارهم ودينهم وديدنهم هو 'خبزنا ما ياكلو غيرنا..!!'

من حسن الصدف.. كان جليل يحمل جواز سفر ساري الصلاحية قبل هذه الأحداث والتطورات التي حدثت في السنوات الأخيرة وإلاّ ربما قد يأخذ الأمر وقتا طويلا وقد يمنع منه بالمطلق، لأن هذه العملية تتطلب تحريّا أمنيا دقيقا عن طالب الجواز وقد يتمّ تعطيله بسبب ملاحظة تافهة لجهة أمنية.. حمل حقيبته وودّع وطنه الذي غادره مكرها وضدا على إرادته وهو يعي تماما أن الشخص المغترب

يظل أجنبيا وغريبا في عمقه حتى ولو استفاد من كل حقوق المواطنة والتجنيس في البلد المستقبل، لأن التمييز يبقى حاضرا في أذهان المُضيفين حتى وإن أخفوا ذلك خشية عقاب قوانينهم التي تمنع ما يضمرونه ولا يعلنونه إلا في تجمعاتهم المغلقة.

****

****

طنجة، دجنبر 2007 ...

"كِيفْ مَا نَحْزَنْ يَـا وَعْدِي عَلَى المْرَاسْمْ؟
كِيفْ بَعْدْ خْرُوجِي مَنْ وَطْنِي نْزُومْ الاَجْنَاسْ؟
حُوزْ بُوطِيبْ فِيهْ ادْرَكَتْ الغْنَـايـْمْ
شْمُوسْ بَصْرِي الاَشْرَافْ الطِّيبِينْ الاَنْفَاسْ"
من قصيدة المكناسية- الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

في مقهى المرسى.. يجلس جليل إلى طاولة وأمامه فنجان قهوة، لا يكاد يتوقف عن إشعال وابل من السجائر ويدخن بتوتر ملفت للنظر؛ فقد تخلّفت الحافلة عن موعدها.. كان يفترض أن تنطلق الرحلة، كما أبلغه صاحب وكالة الأسفار هو منتصف النهار، لكن الوقت الآن يقترب من السادسة مساء وتلك الحافلة لم تصل بعد؛ ربّما تعرضت لحادث مروري أو عطلا ميكانيكيا منعها من القدوم في الوقت المحدد على التذكرة أو قد يكون تلاعبا من الوكالة..؟

مرّ بجانبه، مرّة واحدة أو مرّتين، ممثل وكالة الأسفار المكلّف بإجراءات السفر للحافلة المحتمل قدومها وقد طمئنه أنها في طريقها إلى طنجة، لكنه لا يعرف سبب

تأخرها.. لم يجد من حل بديل سوى أن يصبر حتى النهاية، لأنه دفع ثمن التذكرة ولم يعد لديه خيارا للتراجع فهو يعلم أن انعدام الالتزام بالوعود، هذا الوباء المتفشي في المجتمع صار ثقافة سائدة أينما ولّيت وجهك: "ما كينا كلمة..!!"

لقد تغيّرت أخلاق الناس ولم يعد الكثير يعير اهتماما للقيّم التي ترسخت لقرون في المجتمع المغربي التقليدي الذي كان فيه الوالد أكثر ما يوصي به ولده وهو يربيه ويعلّمه أن يكون فردا مسؤولا، يردد عليه هذه المقولة: "الكلمة هي الرجلة" وحقا قد اختصرت هذه العبارة حكمة الجماعة في الحفاظ على لحمة أفرادها ببناء الثقة بينهم.

مع غروب الشمس في محيط البوغاز.. بدأ الطقس يبرد شيئا فشيئا، وشرعت الرطوبة الباردة المنبعثة من عرض مضيق جبل طارق تزحف على المرسى وتتسلَّل إلى أجساد الجالسين الذين ينتظرون حافلاتهم وموعد انطلاق الرحلة البحرية عبر مضيق جبل طارق.. استغرق جليل في تفكير عميق وهو يقارن بين حال الرعيل الأول من المغاربة وما هم عليه أحفادهم اليوم:

"آهٍ..!! آهٍ..!! كم البون شاسع وكم المفارقة سحيقة؟؟ كل شيء زال..!! تراجعت القيم وانحدرت

الفضيلة، وساد ما يراه الكل اليوم في حياتنا وتصرفاتنا جميعا وبدون استثناء.. أين الوفاء بالعهد والثبات على الأمر الذي سجّله التاريخ بمداد من ذهب لفاتح الأندلس القائد العظيم طارق بن زياد؟ الذي أول ما قاله مخاطبا جنده الأشاوس بعد عبوره الشهير إلى الجزيرة الإيبرية وحرق السفن والمراكب التي أتوا مبحرين على متنها: 'أيها الناس البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم اليوم من نصير سوى عون الله وصبركم'، وكان أوّلهم في طليعة صفوف النزال؛ وقد شأت إرادة الله أن يكون هذا الفتح أو الغزو أو تحت أي تسمية يمكن وصف هذا الانتقال البشري من المغرب إلى الأندلس؛ أن تكون هجرة المسلمين إلى إسبانيا سببا في تطور أوروبا التي كانت تعيش في غياهب الظلام والبدائية الأولى. تطوّروا وتقدّموا إلى الأمام في كل شيء وتأخّرنا وتخلّفنا عن كل إيجابي.. وا حسرتاه!! وا حسرتاه!!"...

استفاق جليل من غفوة حديث نفسه على مناداة مسير الوكالة الذي جاء مسرعا أخيرا، وطلب منه ومن المسافرين الذين التحقوا به أن يتأهبوا ويحملوا أمتعتهم صوب نقطة تفتيش الجمارك، ثم سلّمهم تذاكر جديدة باسم شركة نقل أخرى وأخذ منهم التذاكر السابقة وطلب منهم الالتحاق بالسفينة التي ستغادر بعدها مباشرة، ثم بعد العبور

بجمارك مملكة إسبانيا في الضفة الأخرى، ستكون الحافلة بانتظارهم برصيف ميناء الجزيرة الخضراء...

امتطى جليل الحافلة وانطلقت الرحلة في اتجاه الشمال نحو فرنسا ولكن في طريقه شاهد ما حققته إسبانيا من مجد وعمران وبنية تحتية عملاقة في مدنها وقراها، ولعل أعظم ما شيّدته هذه البلاد العظيمة هي شبكة طرقها السريعة والوطنية التي تمّ شقّها في عمق سلاسل الجبال واخترقتها بأنفاق طويلة ومدّت بين قممها الشاهقة جسورا، تثير حقا في كل من غاص فيها أو مرّ فوقها رهبة وعظمة لا يمكن للمرء سوى أن يقف لهؤلاء القوم وقفة إجلال واحترام جزاء ما صنعوه من فخر ومجد لبلادهم التي كانت إلى عهد قريب جدا أقل مستوى من بلدان الضفة الجنوبية...

كلما مرّ جليل بأحد هذه الجسور أو هذه الأنفاق المذهلة إلاّ وقال في خلجات نفسه: "لاَ هْلاَ يَحْرَقْ شِي عَظْم فْاللِّي بَنَى هَدْ القَناطْر وهَدْ الطُرْقَان"...

استغرق يفكر عميقا:

".. الفرق بيننا وبين هؤلاء القوم هو أننا نحن نكتب التاريخ في بلادنا بالحبر وبديع اللغة الكاذبة كشأن هذه الرواية، أمّا هم فيكتبون تاريخ بلادهم بالمنجزات الضخمة

والعجائب العمرانية؛ فلا تحتاج فترة حكم العاهل الإسباني خوان كارلوس أن تكتب في كتب، بل يكفي للأجيال القادمة في المملكة أن يمرّوا بنفق أو بجسر أو يبحروا أو يطيروا من مرفأ أو ينظروا في القانون الذي يحتكمون إليه، ليعلموا تاريخ تلك الحقبة؛ أمّا نحن فسنظل نحفّظ أطفالنا التاريخ بكلام رنّان في مدارس تخشى السقوط على رؤوس الأبرياء، فتُتَّهم في إعلامنا بأنها قامت بعمل إرهابي ضد تلاميذ آمنين كانوا يتعلمون تاريخ وطنهم الأبي، فباغتهم سقف مدرسة ووقع عليهم بناه مقاول غشّاش آثم بتواطؤ مع موظف مرتش خائن للأمانة في مصالح الدولة...

ما أعظمك يا إسبانيا!! لقد صنعت المعجزات وتفوّقت على جيرانك في الشمال بنهضة عمرانية خيالية وبتنمية اقتصادية خارقة، ولم يعد الماضي سوى ذكرى عابرة في تاريخك.. يحكي المغاربة أنّه في سنوات الستينات والسبعينات كان المواطنون الإسبان يتوافدون على المدن المغربية الشمالية والداخلية للتجارة والقيام بالأشغال اليدوية، وقد كانت الطبقة الشعبية تستهزأ منهم وتصف فقرهم وحاجتهم بكل الأوصاف القدحية، فينعتونهم بـ "سبليوني بورقعة" بمعنى إسباني مفلس أو مُعدم، وكانت مواخير وفنادق طنجة تعجّ آنذاك ببائعات الهوى من

الإسبانيات والغجريات، وهنّ الهاربات من الجوع والحاجة بإسبانيا التي أنهكتها حرب أهلية لسنوات طويلة، وقد شهد على هذا التاريخ شاهدا من أبناء وكتّاب طنجة الأصليين في ما جاء في سرديات الكاتب محمد شكري في مغامراته الجنسية في 'خبزه الحافي'..."

طوت الحافلة مئات الأميال تلك الليلة دون أن يُغمض جفن لجليل.. الذي بات يفكر في مصيره بعد الوصول إلى مقصده، لم يكن يشعر بفرحة الانتقال إلى مكان آخر، لأنه كان يعرف معنى الغربة والعيش في جغرافية تختلف جذريا عن التي نشأ فيها..

كان يصف نفسه بأنه كائن ضوئي أو شمسي فهو لا يطيق العيش في بيئة مكفهّرة ترزح تحت السحب والطقس الرمادي على الدوام. كان يعلّق دائما على هذه الفوبيا الطقسية: "تيجيب لي هذا الغيام الغمة والقنط" وكان الآخرون يهزؤون منه ويعلّقون على كلامه: "كل بلاد وريحها.. إيوا إيوا عليك آ ضّب".

بُعيد الشروق.. توقفت الحافلة بإحدى باحات الاستراحة الفسيحة في مرتفعات منطقة غرناطة، ثم أخبرهم مساعد السائق بالإسبانية شيئا، لم يفهم جليل وجل

المسافرين ما قال، فنهض أحد المسافرين وترجم رسالة هذا الإسباني بلكنة شمالية:

- آ يقول لكم ماشي نوقفوا نوص ساعة للفطور...

كان الجو قارسا جدا تلك الصبيحة.. نزل الجميع وتوجّهوا إلى المقهى التي كانت تحفة معمارية جميلة وسط فضاء فسيح به محطة وقود ومرآب واسع لتوقف العربات والشاحنات الكبيرة، محاط بمجال أخضر وأشجار.. دخل المسافرون وتوجّهوا للمرافق الصحية التي كانت مصمّمة بجمالية فائقة وفي غاية النظافة...

أخذ المسافرون يتناوبون في استعمال دورة المياه، وبعدها في غسل وجوههم والوضوء للصلاة. طفق أحد المتقاعدين، الذين كانوا هم غالبية المسافرين، يُهَمهم معلّقا على ما ينعم به من خدمة جيّدة في هذا المكان، وهو يتمضمض بالماء الساخن الذي يتدفق من الحنفية بسخاء، باعثا بخارا متصاعدا في الهواء:

- الكابينا ديَلْهْم حسن من العمالة ديالنا فالموغريب...

كان جليل من بين الذين ينتظرون خلفه لكي يستعملوا المغسل، فانفجر الجميع يضحك دون تعليق، لأن كلام

الرجل به جزء من الحقيقة المرّة التي لا يجهر بها المغاربة سوى خارج الوطن.. عاد كل الركاب إلى الحافلة بعد استراحة الفطور، وانطلقت الرحلة بسائقين آخرين، وقد انتبه أحد المسافرين إليهما وقال: "تبدلو الشوافر، هدو جداد!!"[1]. يجيب من كان بجانبه: "هذي بلاد القانون ماشي اللعب!!". يرد شخص ثالث من جهة الأمام: "تسالت تمنيا السوايع ديالهم". يضيف أحد الأشخاص الآخرين ممن لا يفوّتوا الفرصة لإبداء رأيهم: "كلشي داير شغلوا هنا!!"...

بعد أن تفقّد أحد السائقين الجدد عدد المسافرين الذين وصلت بهم الحافلة إلى هذه النقطة؛ انطلقت الرحلة من جديد وساد الصمت بعد أن شغّل السائق المذياع على إحدى المحطات.. فبدأ يصل إلى مسامعهم صوت منخفض لموسيقى إسبانية شعبية شهيرة وغناء جميل...

شعر جليل بصداع في رأسه بسبب التغير المفاجئ للدرجة الحرارة بين الحافلة والخارج وقت النزول لاستراحة الفطور. سأل من بجواره إن كان معه قرص أسبرين. سمعه أحدهم وقام من مقعده ثم أخرج حقيبته من الرف فوق رأسه وناوله الكبسولة، شكره جليل على صنيعه؛ ابتسم

[1]-"لقد تغير سائقا الحافلة لم يبقيان السائقين السابقين!!"

الرجل معلّقا: "ما طلبتي غير الواجد..!!". يضيف راكب آخر يبدو من شكله أنه قد أفنى حياته بهذه البلاد: "ما خَلّي الناس عندهم غير الدوا!!" ويعلّق متقاعد آخر بمقربة منهم: "آنشبرو دَّوا ديال ست شهور عاد نروّحو للموغريب[1]"

حدج جليل بعينين متعبتين من وراء نظارته السميكة وجوه هؤلاء الركاب.. جلّهم في سن التقاعد أو على عتبته.. هذه الفئة من المغتربين يجسدون هيئة مغاربة أوروبا يرتدون بدلات (فيست) ويضعون قبعات بيضاء على رؤوسهم وقد تركوا لحاهم...

بين الفينة والأخرى، تسمع أحدهم يدردش مع من يشاركه المقعد متحدثا إليه عن رحلته إلى البقاع المقدسة وفي نفس الوقت ينقل شفاهيا بطاقة تعريفه لمن بالجوار لمناداته "بالحاج"، وهذا شخص ثان يحكي قصته مع المرض وذاك شخص ثالث يحكي مشكلته مع مكتريه بالمغرب ومقاضاته بعد أن امتنع عن دفع الإيجار...

كل يحمل في نفسه همّ يؤرقه.. لكن هناك من لم ينبث ببنت شفة طوال الرحلة ما عدا إذا تفوّه أو عطس ثم

[1] -"نأتي إلى المغرب محملين بكمية دواء تكفينا لمدة ستة أشهر" (المدة التي يقضونها في المغرب قبل العودة)

ردّ التشميت بتعبير مقتضب، فهناك من لا يحب مشاركة همّه أحدا، وقد يفلّت على نفسه نصيحة أو توجيه هام، وصدق المثل الشعبي القائل "حتى واحد ماكفيه عقلو".

****

****

أفينيون، دجنبر 2007...

"يَاسَرْ مَنْ النَّاس مَنْ بَغَى لِي ذَا الجَلِيَّة
وَفْرَحْ قَلْبُه عَلَى أَحْزَانِـي و كْدَارِي
يَاسَرْ مَنْ النَّاسْ مَنْ عَطَفْ قَلْبُه لِي
يُومْ فْرَاقِي مَعَ احْبَابِي واوكَـارِي"
من قصيدة المكناسية:الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

كانت الساعة تقترب من منتصف الليل.. توقفت الحافلة بمقربة من محطة قطار (TGV) فائق السرعة بعد يوم ونصف من السفر.. نزل جليل بعد أن ودّع من كانوا بجواره متمنيّا لهم تتمة الرحلة بأمان. أخرج حقيبته من صندوق الأمتعة وتوجّه صوب مخدع هاتف عمومي ثم أدار رقم العائلة وأخبرهم بوصوله الذي تأخر عن الوقت المفترض أن تصل فيه الحافلة...

اقتعد مقعدا في قاعة الانتظار بمحطة القطار، محتميا من صقيع ليل 'فوكلوز'[1] البارد، ريثما يصل أخوه.. شرد ذهنه إلى أشعار قديمة للشاعر بول مانيفي:

[1] -فوكلوز: تسمية أحد الأقاليم بالجنوب الفرنسي

زقاق تانتتوري	*La rue des Teinturiers*
وَاحَةٌ غَنَّاء تُنْعِشُ الحُلْمَ وَالخَيَالَ	*C'est la fraîche oasis du rêve et du mystère*
هُنَا يَصْعُدُ الدُّعَاءُ وَيَنْتِحبُ الأَسَى	*D'où monte la prière, où pleure le regret.*
هُنَا، يتَضَاعَفُ إِغْرَاءُ السَّكِينَةَ وَالظِّلاَل	*Là, le silence et l'ombre offrent leur double attrait*
تُنَادِيكَ لِتَبُوحَ بِسِرِّ رُوحِهَا الأَبَدِي	*À qui porte un secret dans l'âme et veut le taire.*
تَلُوحُ زُرْقَةُ نَهْرِ فُوكْلُوزْ المُتَدَفِقِ فِي مَجْرَاه	*Le flot bleu de Vaucluse au canal transparaît,*
تَغْرِفُ النَّاعُورَة المَاءَ ثُمَّ تَغْدِقُ الأَرْضَ قَطْرًا	*La roue en s'égouttant l'éparpille par terre*
تَهَبُ الكَنِيسَةُ انْتِعَاشًا وَرُوَاءً	*Donne de la fraîcheur à la chapelle austère*
تَسْتَهْوِي المُسْتَغْفِرَ لِيَنعَمْ بِجَمَالِهَا المغري	*Le pénitent se trouble à ce charme indiscret.*
زقاق تانتتوري: بول مانيفي، 1913	*La rue des Teinturiers : Paul Manivet,1913*

بعد ساعة ونصف، استفاق من غفوته على يد رَبَتَت على كتفه بلطف. رفع رأسه المثقل بالنعاس ثم أزاح عن رأسه قِبُّ معطافه الشتوي، ملتفتا إلى جنبه..كان أخوه واقفا بمحاذاته مترددا في إيقاظ النائم الذي لم يتعرف عليه بعد؛ لم يلتقيا منذ سنتين خلت.. غادرا المحطة والحبور يعلو محياهما في اتجاه بيت العائلة...

مضى شهران من فصل الشتاء البارد بالجنوب الفرنسي وهي فترة لم يعتَد جليل البقاء فيها بفرنسا.. كان يقضي فقط فترة الصيف مع العائلة للاستجمام ثم كذلك للاشتغال في الموسم الفلاحي؛ يجني منها قسطا من المال

يدبّر به تكاليف العيش ومتطلبات دراسته وقت كان ما يزال طالبا بالجامعة.. على الرغم من ذلك، حاول أن يتأقلم مع ظروف العمل الذي وجده لحسن الحظ بعد يومين أو ثلاثة أيام من وصوله إلى فرنسا بمساعدة أخيه الذي سبق له أن اشتغل في نفس الضيعة الفلاحية لإنتاج شتائل الكروم. كان يلزمه الحصول على رخصة سياقة فرنسية لأن التي يحملها لا يعترف بها في فرنسا، ولابد من أن يتسجّل في إحدى مدارس تعليم السياقة للحصول على رخصة سياقة فرنسية...

استطاع بعد ستة أشهر وهو الحد الأدنى في القانون، أن يحصل عليها ومن ثمّة أحس بأنها خطوة أولى في طريق اندماجه بالبلد المستقبل؛ تخلَّى له الوالد عن إحدى سيارتيه ليستعملها للتنقل إلى العمل وكانت دفعة إضافية وما عليه الحين سوى أن يشمّر على ساعدي الجد ويبحث لنفسه عن العمل الدائم الذي يمكنه من بناء حياته والانطلاق نحو المستقبل. كان هذا هو الإحساس الذي انتابه في الشهور الأولى من إقامته، لكن سرعان ما لحقت به لعنة ما تركه وراءه في الوطن...

****

****

أورانج، يونيو 2008...

فْ سُوقْ اهْل الكْمَالْ بْنْظَامي بَعْتْ وشْرِيتْ
وَبْلَغْ قَصْدِي مْعَ سْلَاطْنْ الوَلايَا
فَرْحَتْ لَمَّا هْدَانِي الكَرِيمْ وتْوَالِيتْ
وحَمْدَتْ الله وشْكُرْتُه مُولَايَا
والله مَا بْقَاتْ غُمَّة فْ حْشَايَا
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

ركب الوالد السيارة ثم فتح له الباب فركب إلى جانبه.. ذهبا معا إلى إحدى الضيعات الفلاحية الكبيرة بالمنطقة، بحثا عن عمل لجليل الذي أنهى عقد الشغل السابق ويبحث الآن عن عمل من جديد.. انطلقا في الطريق خارج المدينة في اتجاه المجال القروي؛ لاحظ جليل أن إكليلا وباقات زهور مثبتة بعناية في أحد المنعرجات على حافة الطريق، وقد تعجّب من سبب وضع هذه الباقات في مكان غير مأهول وليس بقربه مشتل لبيع الأزهار والورود. سأله

جليل: "شكون اللي زوّق هذ البلاصة بالنوّار؟"، أجابه الوالد: "عادة عند الكْـوار.. تيحطّو النوَّار للميت!![1]".

شرح له الوالد أن الفرنسيين اعتادوا أن يضعوا صورا وأكاليل الزهور لذكرى حبيب أو عزيز فارق الحياة في موقع حادث مروري أو غيره من الحوادث المميتة التي يفارق فيها الأشخاص الحياة. ولهذا تجد مثل باقات الزهور بين الفينة والأخرى موضوعة على جنبات الطرق، وإن كان هذا الأمر نادرا جدا في الواقع، لأن نسبة حوادث السير ضعيفة في فرنسا، فالجميع يحترم قانون السير ويدرك قيمة الحياة التي لابد من صونها والحفاظ عليها في المجتمع...

يسترسل الوالد في الكلام فيفترض أن القتيل كان شابا مخمورا حديث العهد بالسياقة، قد حصل على رخصة السياقة منذ فترة وجيزة.. فهؤلاء الشبان يكونون غير ذوي تجربة في القيادة أو ربّما أحد الشبان المتهورين الذين يقودون بسرعة جنونية الدرّاجات النّارية الخاصة بالسباق فائقة السرعة...

يلفان يمينا ثم يسيران في طريق غير معبد لكنه مستو يخترق حقول واسعة من أشجار الكروم التي بدأت أغصانها

[1]- "من العادات في بلاد النصارى.. يضعون باقات الزهور إكراما للموتى"

تنمو شيئا فشيئا. شرع الوالد مجددا في سرد قصصه في هذه المناطق عندما أتى إلى فرنسا في بدايات الثمانينات وعن أوّل يوم عمل قضاه في إحدى الضيعات التي أجهز فيها على أحد أصابعه بقصّة مقصّ تشذيب أغصان الدالية في أحد أيام الشتاء البارد.. يخبره أن صاحب هذه الضيعة يمتلك هكتارات كثيرة وليس لديه سوى بنت وحيدة تشتغل محامية في مرسيليا.

كان الوالد يحرص دائما على أن يخبره عن نمط حياة الفرنسين وعن عاداتهم وطريقة تفكيرهم، لأنه قضى سنوات من العمل والعيش بينهم ويعرف تفاصيل كثيرة عنهم، يحب دائما أن يبلغه بها كي تسعفه في الاندماج في هذا العالم المختلف عمّا يروج في بيئتنا الأصلية.. يضيف أن هؤلاء الفرنسيون لا ييأسون من دنياهم فهم يشتغلون بدون توقف ويستزيدوا من الثروة حتى في نهاية حياتهم.. قال له بعد أن اقتربا من القلعة التي يسكن بها العجوز: "هادوا ماعندهوم لا والي ولا تالي وديما خدامين" ثم أضاف: "ساكن غير هو والشيبانيا ديالو فهذ الشاطو[1]"...

[1] -"يسكن هو وزوجته العجوز فقط بهذه القلعة"

توقفا بعد أن ولجا بالسيارة بوابة القلعة غير المغلقة، رغم أن الوقت كان قبيل الغروب. استغرق جليل يفكر عميقا:

"يبدو أن هؤلاء الناس يعيشون بسلام ولا يخشون شيئا، عكس ما يحسّ به حتى من يتوهّمون أنهم أغنياء من رعب في بلداننا؛ فما بالك بمن يمتلكون فعلا ثروة طائلة..!! لو كان هذا الأمر عندنا لوجدت أقل ما تجد حارسا أمام البوابة ولن يدعك تتحدث إلى "سيد الحاج" هكذا بسهولة إلا بعد أن يستفسر عنك وعن حاجتك!!".

فتح الوالد باب السيارة وطلب من جليل النزول لقدّمه لـ "الباطرون[1]" كما يسمى هؤلاء المزارعون الكبار.. كان لدى جليل فوبيا من كلاب الحراسة التي يستعملها الناس في الضيعات والمزارع، فرغم أنّها مدربة جيدا وذكية ولا تؤدي إلا من أحست بنيته السيئة، إلا أنها كانت تخيفه، خاصّة وأنه لم ير من ذي قبل مثل هذه الفصائل من الكلاب كبيرة الحجم، وقد تتعّقب الزائر للمكان خطوة بخطوة ولا تكاد التوقف عن إمعان النظر في الغرباء بعيونها الحمراء المرعبة، كما قد تتمادى في شم أطراف الشخص وملابسه، وغالبا ما

[1] -الباطرون: كلمة فرنسية تعني رب العمل أو المشغل

تعرف سياق الحديث الذي يروج بين صاحبها ومحدثيه؛ فتراها منزعجة أو حذرة أو فرحة بنفس إحساس صاحبها..

سأله جليل: "ياك ماعندو كلاب العسّة هنا؟". أجابه الوالد: "لا..!! عندو جوج شيواوا..!!".. استفسره جليل مُتبرّما وقد ذهب به الظن إلى أن هذه القلعة لن يستنكف مالكها عن ترويض نمور لحراستها: "شيواوا.. أش هدا شي عاود تاني؟".. أخبره أن هذا العجوز كان لديه في الماضي كلبي شيواوا صغيرين فقط، وهي فصيلة كلاب صغيرة جدا.. وأضاف أن الفرنسيين يألفون العيش مع هذه الحيوانات الأليفة التي غالبا ما تملأ فراغا يتركه أفراد العائلة، فهؤلاء غالبا ما يعيشون في وحدة بعد انتهاء علاقة زوجية بموت أحد الزوجين أو طلاق أو غيره، فتجدهم يستعيضون عن الطرف الآخر بالعيش مع أنيس آخر يكون في الغالب كلبا أو قطا أو غيرها من الحيوانات الأليفة...

نزل الاثنان ثم توجّها صوب الباب بعد أن صعدا في درج صغير ومرّا عبر مدخل على شكل قوس ثم دخلا إلى فناء مربع وواسع. لاح شكل القصر أو هذه القلعة العتيقة وكأنها تحفة معمارية تعود إلى عصور أوروبية غابرة، رغم ما يبدو عليها من ترميم أضافه إليها مالكها كإصلاح الواجهة

والشرفات الجميلة التي تتوزع بقياسات فريدة في الطوابق العليا.. على جنبات فناء القلعة، توزّعت وسط أرصفة بنيت بحجارة صقيله أشجار زيتون قصيرة الطول أو أنّ مقض التشذيب المنتظم أنهك عُلوُّها، برعت في وضعها بانتظام يدي بناء وفلاح ماهرين، وقد زُرعت بينها نباتات وأزهار يفوح منها أريج عبق...

وصلا إلى المدخل.. فرنّ الحاج الجرس ثم تريث للحظة، بعدها فتح الرجل الباب ثم خرج وقد تذّكره لأنه اشتغل عنده في السابق.. صافحا الاثنان العجوز الذي كان ما يزال بعدُ يشعُّ من عينيه الزرقاوين بريقا وحيوية، رغم اجتياح الشيب شعر رأسه وحاجبيه وبروز التجاعيد على وجهه.. أخبره الحاج بعد أن عرّفه على جليل، عن سبب مجيئهما.. طلب منه العجوز أن يأتيه ببطاقته ورقم تأمينه الاجتماعي وأن يلتحق بعمال مغاربة آخرين بالضيعة ابتداء من صباح الغد..

ودّعا السيد أرنوكس.. ثم ركبا السيارة وعاد أدراجهما، وقد رأى جليل أن جميع مواقف الآلات الفلاحية وما يملك هذا المزارع غير مغلقة شأنها شأن البوابة التي مرّا منها.. استغرق جليل يفكر عميقا:

".. هذا أمر عجيب!! يترك هذا السيد جميع أبوابه دون إغلاق!! لا شك أن هذه البلاد خالية من اللصوص..!! وهل يبقى هؤلاء في دولة تكفّلت بالأمن الاقتصادي والاجتماعي لمواطنيها، فأغنتهم عن السؤال أو حتى عن مجرد التفكير في الإقدام على السرقة؟ لا شك أن هذا المزارع لم يحصل على ثروته هذه بطريقة غير شرعية كما يوجد في بلدان أخرى حتى تتعقبه لعنة الهلع وعدم الاطمئنان كما يشعر بها من سرق ونهب ليدرك ثروة وأموال قذرة..!! أكيد أن هذا "الباطرون" قد وفّر سنوات عمل لعمَّال بؤساء وفدوا من الضفة الجنوبية، وبفضله أعالوا أفواه كثيرة في أوطانهم.. فهل مثل هذا يخشى يدا آثمة تمتد لتسرق ماله؟ كلا..!! كلا..!! لابد أن هؤلاء الأوروبيين قد نفِذوا إلى عمق عقيدتنا وارتحقوا رحيقها، ففلحوا في دنياهم فهل يخسروا في آخراهم؟؟ هذه هي فلسفة الخليفة عمر الفاروق رضي الله عنه؛ نعم هي نفسها فلسفة الرعيل الأول ممن عرفوا معنى دينهم فعاشوا آمنين مطمئنين؛ وهل أخطأ في الوصف ذلك الأعرابي الذي قال: 'عدلت فنمت يا عمر'، عندما رأى عمر بن الخطاب نائما في ظل شجرة في العراء دون أن يخشى يدا غادرة تؤذيه انتقاما لمظلمة لحقت به؟؟؟"

استفاق جليل من غفوة تفكيره على صوت الحاج التهامي الذي علّق على قبول الباطرون تشغيله في الضيعة: "هذ الباطرون دار الخير فالمغاربة كاملين كلشي كلَى الخبز معه..!!" ثم أضاف: "دار الخير حتى فالتوريس كان تيخدمهوم..!![1]"...

استرسل الحاج في الحديث عن صاحب الضيعة الذي كان يساعد جميع المغاربة ويقدّر مجهودهم وتعبهم في حقوله، بل كان يجازف ويخرق القانون الفرنسي فيشغّل العمّال من المغرب العربي الذين كانوا يقيمون في فرنسا في وضعية غير شرعية، وذلك من أجل أن يساعدهم فقط على الحصول على مورد عيش.. كان يثق في أحد العمّال المغاربة لدرجة أن زملاءه في العمل يلقبونه بولد الباطرون، على سبيل المزاح لأن العجوز لديه بنت وحيدة ويفتقد ابنا وريثا ذكر يرث من بعده...

****

[1] -" أسدى خدمة للعمال المغاربة غير الشرعيين وسمح لهم بالعمل في ضيعاته"

****

ضيعة السيد أرنوكس، يونيو 2008...

"يَا وَيْـحْ اللِّي مَا بْقَاوْ فْ مْكَاتْبُه دْرَاهَمْ
فَلْس احْمَر يْكُونْ مَنْ قْرَارْطْ نْحَاسْ
خِيرْ مَا تَخْتَارْ الْبَعْضْ مَنْ ابْن آدَمْ"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

توقّف جليل إلى جانب السيارات المركونة في الموقف جانبا. أغلق المذياع الذي كان يذيع أخبار الصباح من إذاعة محلية إذاعة الشمس (Radio soleil). خرج من السيارة ثم ففتح صندوق السيارة وأخذ حذاء العمل وخلع حذاءه الرياضي ثم أعاده إلى مكان الأول. لاحظ أن هناك بعض العمال وصلوا قبله وقد تحلّقوا في حلقة يدردشون في انتظار وصول الجميع، لكي يوزع مسير الأشغال المهمات على المجموعة.

توزعت المهمات على الجميع في مجموعات مكونة من أربعة أشخاص.. ذهب جليل رفقة ثلاثة عمال أخرين إلى أحد الحقول لإزالة البراعم الزائدة من سيقان أشجار الكروم.. انطلق الجميع في العمل وقد أثار جليل فضولهم.. سأله

أحدهم: "عاد بديتي الخدمة هنا؟" ثم أضاف الشخص الثاني دون أن يترك فرصة لجليل ليجيب عن سؤال زميله البديهي فهم يعرفون العمال الملتحقون الجدد في كل صباح: "منين أنت فالخوت؟". أجاب الشخص الثالث زميله، وقد سبق أن رأى جليل مع والده في مكان ما: "أنت ولد الحاج صحراوي؟؟"...

استمر زملاؤه في العمل يسألونه أسئلة التعارف يمينا ويسارا.. يسأل الشخص الأول من جديد: "هي عاد جيتي من البلاد؟". أجابه جليل: "هذي ست شهور".. يسأل الثاني: "هي ماخدمتش مع المخزن في البلاد؟". يجيبه الثالث: "وهنا حسن ليه من لهيه.. هو قاري يقدي بالموجود حتى يلقى ماحسن"...

انتهت أسئلة التعارف بين جليل وزملائه في العمل، وانتقل الحاج محمد بالحديث إلى من بقربه يخبره عن استعداده للسفر إلى المغرب في نهاية الشهر وعن عزمه إقامة العرس لابنته.. واسترسل في الحديث عن السيارة البديلة التي اشتراها وأنه يلزمه القيام بأعمال صيانة قبل الرحلة...

بعد شهرين...

وصل الجميع إلى نهاية صفوف أشجار الكروم على طرف الحقل. توقفوا لبرهة لاسترجاع أنفاسهم، ويشربوا من قارورات الماء التي يحملونها معهم.. أشعل جليل سيجارة وكان هو المدخِّن الوحيد من بينهم.. استدار ناحيته الحاج عبد الدايم الذي كان يتأفف من مبالغته في التدخين الكثيف، وقال له بنبرة لا تخلو من تحسّر ونصح: "آ صحراوي ارْتَى على قلبك شويا من الدخان..!!". أجابه جليل بلطف: "دعي معيا بالعفو آعمي الحاج..!!". سكت الجميع لهنيهة للالتقاط الأنفاس والارتواء ثم سأل جليل الحاج عبد الدائم: "آالحاج.. واش حلال هذ الخدمة في الدالية ديال الشراب؟"...

صمت الحاج عبد الدائم قليلا أو ربما لا يريد الإجابة عن أمر يعرفه الجميع هنا ولكن يتجاهلونه بحجة "هذا ماك أحوت شربوا ولا موت..!!".. يجيب عِوضا عنه ميمون الذي يحب المزاح كثيرا: "خاص الكْـوار يجبرو ما يشربو باش يسكرو..!![1]" ثم أضاف مازحا: "إلَى سحاو غادي يجرِّيو على العرب من فرنسا..!![2]".. يضحك الجميع على ما قال ميمون الذي تعمّد هذه المزحة لكي يرفع الحرج عن الحاج عبد

[1] -"يجب أن يجد الفرنسيين الشراب متوفرا للجميع لكي يهدأوا"
[2] -"سيطرودون العرب من فرنسا إذا لم يبقوا في حالة سكر"

الدائم الذي أطلق لحيته ولا يكاد يفتر عن الحديث للمتواجدين من حوله عن ضرورة الالتزام بتعاليم الشرع وينهال عليهم بالنصائح والمواعظ...

****

****

المقهى، نهاية الأسبوع، مساء...

"كِيفْ يَنْجَا مَنْ خَلاَّنِي ضَحْكْ لِلنَّـــاسْ ؟
كِيفْ يَسْلَمْ مَنْ خَلاَّنِي تْلِيفْ هَايـــمْ ؟
حْمَايْتِي وَاحْبَابِي واهْلِي وَاعَزْ الُوناَسْ
وَفْرَاقْهُمْ جَانِي عَلَى القَلْبْ شَـــاتَـمْ"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

يتحلّق حول الطاولة من كانوا يشتغلون مع جليل في الضيعة يدردشون.. يخبرهم أحدهم: "واقيلا داك الصحراوي دار شي موصيبة فالبلاد وهارب..!!". يسأل الثاني الذي بجانبه: "علاش..؟". يجيب: "شفت الجادرمية جاو للباطرون..!![1]". يخبرهم الثالث: "الباطرون سقسى عمرو عليه، واش عندو الأوراق..؟". يضيف الثاني: "عندو الأوراق.. جا صغير لهنا نعقل عليه!!". يؤكد ناقل الخبر بنبرة لا تخلو من تشفي: "هدو ما تيضلمو حد، عندو شي مشكل، وجاو يديرو لانكيط..!!"[2]...

[1] -"رأيت رجال الدرك في مكتب رب العمل!!"
[2] - لانكيط: كلمة فرنسية تعني التحقيق القضائي.

كان جليل يشعر بعد مرور أقل من سنة على إقامته بفرنسا أن جهاز الاستخبارات الفرنسية يتعقبه فعلا ويراقب تحركاته.. حدث مرة أن أوقفه أحد المشغلين عن العمل فجأة وبدون سبب، رغم أنه كان يتعامل معه بلطف في الأيام الأولى، خاصة وأن جليل يتفانى في عمله، إيمانا منه أن عليه كسب رزقه بالحلال ولن يغش أو ينقص المشغل من حقه شيئا، ورغم ذلك فقد أوقفه عن العمل لأن هؤلاء الفرنسيون مهووسون بصرامة القانون الذي لا يرحم كل مخالف...

قد يكون السبب وراء هذا التوقيف مثلا مُساءلة أفاد بها هذا المزارع الدرك حول جليل أو قد تكون السلطة أصدرت له أمرا بالتعاون معها والقيام بعملية المراقبة لتصرفاته خلال فترة الشغل لصالحه؟ وطبعا، هذا ما قد يكون أزعج هذا "الباطرون" فهو في غنى عن كل ما قد يأتي من ورائه شبهة قد تضع الفلاح نفسه في بؤرة الضوء، خاصة وأن هؤلاء المزارعين المتجاورين في الغالب يتملّكهم الحسد والغيرة اتجاه بعضهم البعض، وقد ينتقم من له مصلحة في ذلك بأن يقدّم وشاية ضده أو غيرها...

أدرك جليل أن وشاية كاذبة لحقت به إلى بلاد المهجر من جهة ما في الوطن، لا يدري من يقف من ورائها ولكن

هناك معلومات تستهدفه بالذات، قد تكون في إطار التعاون الاستخباراتي وتبادل المعلومات الأمنية بين المغرب وفرنسا وبلدان الاتحاد الأوروبي.. لابد من أن هناك أمرا غير طبيعي ولكن ما هو؟ فجليل نفسه لا يعلمه.. فلم يسبق له أن مارس عملا سياسيا أو نقابيا أو انتمى لإحدى الجماعات أو التنظيمات الطلابية أو السياسية المحظورة في المغرب مثلا، وليس ممن يبدو على سلوكهم تشدد ديني أو غيره، بل لم يسبق له أن أوقف حتى في تفتيش عادي كما قد يتعرض له الشباب بصفة عرضية بالشارع في وقت متآخر من الليل، أو حدث أن أدلى حتى بشهادة في محضر من محاضر الشرطة القضائية في قضية معينة على سبيل المثال؛ قد يكون على إثرها علق اسمه ورقم بطاقته في سجيل ما وانتقل بقدرة قادر ليملأ به اسم شاغر في ملف آخر أو غيره...

عاد جليل مساء من عمله كالمعتاد، بعد يوم عمل شاق وحالة شك وحيرة لازمته في شغله، بسبب التوجس البادي على وجوه زملائه.. استلقى على الأريكة مستغرقا في تفكير عميق:

".. آه.. آه.. لا بد أن يكون هناك من يتهمني بتهمة ما في مكان ما..!! ولكن من لديه مصلحة في ذلك..؟ فأنا ليس

لدي عداوات مع أي أحد أو سبق أن اعتديت على أحد. فما عساه يكون هذا الذي أراد الانتقام مني بواسطة شخص نافذ أو جهة ما لها أدرع طويلة تمكنت من الوصول إلى الخارج لتقديم مذكرة توقيف أو تزويد الجهات الأمنية بفرنسا بمعلومات مفبركة لحصاري حتى خارج وطني..؟ هل لهذا الأمر علاقة بما أخبرني به عبد النبي، صديقي في الدراسة منذ ما يزيد عن ست سنوات حول حملة التوقيفات التي قام بها الجهاز الأمني بالمغرب في حق من وُجِّهت لهم تهمة الإرهاب، وكان هو كذلك من بين من أخذت الشرطة القضائية أقواله لأن قريبا له كان من ضمنهم..؟.. آه..آه.. 'إيوا هذا هو الحماق!!' .. هل أنا مصاب بالدهان أو الفصام وأتوهم أنني مراقب من طرف الاستخبارات؟ كلا..!! كلا..!! وكيف أفسر ما يحدث معي بالواضح؟؟"...

تأكد جليل بما لا يدع مجال للشك أنه فرد معروف عند الجهاز الاستخباراتي المحلي وأن له ملف أمني وأنه مراقب، وقد كانت تحصل معه أشياء غريبة نتيجة أخطاء يقوم بها العناصر الموكول لها المراقبة في الحي، فكان دائما ما يكتشف العيون التي تتبع تحركاته وهم فرنسيون وكذلك من الجالية المغاربية، بل ويكتشف ذلك من خلال بعض الخروقات التي تقوم بها السلطة أحيانا، ربما بعد يأسِهم من

وجود دليل لإدانته أو بدافع ذاتي عنصري من أحد عناصرها وقد حدث معه هذا في مرّة من المرات...

****

****

31 دجنبر 2008...

كِيْفْ مَا يَنْكَدْ قَلْـبِـي مَنْ شْفَايْةْ النَّاسْ ؟
كِيفْ مَا نَحْزَنْ يَـا وَعْدِي عَلَى المْرَاسْمْ ؟
كِيفْ بَعْدْ خْرُوجِي مَنْ وَطْنِي نْرُومْ الاَجْنَاسْ ؟
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

يرن منبه هاتفه.. تشير الساعة إلى الرابعة بعد الزوال. يتوقف جليل عن تشذيب أغصان الكروم ثم يغادر الحقل مباشرة نحو دراجته الهوائية التي يستعملها مؤقتا في التنقل إلى العمل بعد أن تعطّلت سيارته فجأة، وليس لديه المال الكافي لإصلاحها، بل لا ينوي القيام بذلك لأنها قديمة وقد كثرت أعطالها مؤخرا؛ وما كان عليه سوى أن ينتظر ريثما يوفر مبلغا لا بأس به ليستبدلها بأخرى تكون حالتها الميكانيكية أفضل، ولهذا السبب آثر العمل في هذا اليوم، رغم أنه يوم عطلة رسمية في الدولة، على راحة يحتاجها جسمه...

لكن مادام الاتفاق الذي يربطه بالمشغل هو إنجاز مهمات دفعة واحدة غير مرتبطة بالزمن، فكان جليل يأخذ

بعين الاعتبار أهمية كل دقيقة عمل تنجز في هذه المهمة يستفيد منها أكثر لتوفير المبلغ الكافي لشراء سيارة تكون في حالة جيدة، فقد أنهكه التنقل اليومي ذهابا وإيابا على الدراجة الهوائية في هذا الفصل البارد جدا. كان هذا سبب مباشر وراء انهماكه في العمل المسترسل بدون توقف طيلة أيام الأسبوع حتى في أيام الآحاد رغم أنها أيام عطلة وراحة...

امتطى جليل الدراجة ثم سلك الطريق الريفي الذي اعتاد سلوكه في الذهاب والإياب إلى العمل.. كانت المسافة بين العمل ومسكنه حولي عشرة كيلومترات تخترق عشرات ضيعات الكروم.. كان يقطعها ممتطيا دراجته في غسق الفجر طيلة أيام الشتاء القارس ولا يعود إلا قبيل الغروب.. في ذلك اليوم، وهو عائد مساءً كعادته بعد أن انتهى من يوم عمل شاق، فوجئ بكمين أمني نصبه له الدّرك الوطني في أحد ملتقيات الطرق...

بعد أن اقترب من المكان.. باغتته سيارة الدّرك بسرعة جنونية وقد خرجت من مسلك جانبي منحدر شيئا ما، تنحجب فيه الرؤية من الجهة التي كان جليل قادما منها. اعترضت طريقه السيارة مع إحداث فرملة قوية جدا، وأُصدِر له الأمر بالتوقف عبر مكبر صوت مثبت على سطح السيارة:

"أيها الدرّاج توقف فورا..!!".. توقف جليل على الفور وهو مرعوب من هذه المباغتة التي لم ير مثلها إلا في أفلام الرعب عند المخرج الأمريكي هيتش كوك رائد هذا الاتجاه السينمائي...

أصيب بخرس نتيجة صوت الفرملة القوية والأمر الصادر عبر الميغافون وصوت صرير دراجة نارية أو شيء يشبهه انطلق على الفور بسرعة في اتجاه لم يره، قد يكون من نفس المسلك المنحدر الذي خرجت منه سيارتهما المتخفية أو من مسلكٍ آخر يقابله صعودا بين الأشجار إلى ربوة .. ظلت سيارة الدرك متوقفة في مكانها وسط الطريق لفترة معينة، والضابطان ينظران إليه..!!

سألهما إن كان هو المعني بأمر التوقف، لأنه لم يعد يميز وسط هذه المباغتة من الموقوف؟ هل كان الأمر موجها إليه؟ أم كان موجه إلى من كان يمتطي الدراجة التي سمعها انطلقت في اتجاه ما لم يره؟.. فتح الضابط الذي كان على المقود زجاج النافذة ليستمع إلى ما قاله.. أعاد عليه جليل السؤال: "هل أنا المعني بأمر التوقف؟".. لم يجب الضابط على سؤاله، وقد اكتفى هو وزميله بالنظر إليه فقط...

أدرك بعدها أن هذا الفعل لامحالة تحرش من طرفهما.. انتظر جليل واقفا في مكانه تحسبا أن ينزلا لتفتيشه أو غيره؛ بدعوى أنه يحمل مخدر حشيش مثلا أو شيء من هذا القبيل، مما يتورط فيه، بصفة عرضية، شباب المغرب العربي من أبناء الجالية، لكنهما لم يفعلا وظلاّ في السيارة.. بعد أن تأكد من عدم رغبتهما في النزول لتفتيشه، جرّ دراجته بتثاقل وقال لهما بصوت مسموع بعد أن تقابل معهما مباشرة أمام نافذة السيارة التي ظلت متوقّفة مكانها: "شكرا.. هذا عمل رائع!!".

أراد جليل أن ينقل إليهما رسالة مفادها أن هذا الفعل خارج عن القانون وهو مخالفة وتحرّش ضد مواطن مسالم وفي موقعٍ غير ذي شبهة، فما الداعي إلى ذلك؟ لم يستطع جليل من فرط الصدمة أن يمتطي دراجته مرّة ثانية، فواصل المشي راجلا يجرّها على حافة الطريق ريثما يسترجع توازنه.. بعد لحظات قليلة، لحقت به سيارة الدّرك نفسها ومرّت مُتجاوزة إيّاه، لكن هذه المرة ضمن قافلة من سيارات عادية متبوعة بعضها ببعض في اتجاه المدينة...

انصرفت سيارة الدّرك ضمن ركب السيارات المتبوعة ببعضها البعض، وبعدها خفّت حركة السير، التي ربما تكون

تعطلت خلال هذه العملية في كلا الاتجاهين ثم انطلقت مجددا بنهاية هذا المشهد الدرامي...

لم يتوقف مشهد الكمين المرعب عن تكرار أطواره ومشاهده في ذهن جليل، محاولا أن يسترجع بعض التفاصيل وأن يفسّر هذه الحادثة الغريبة.. توقّف عن السير وركن درّاجته جانبا ثم جلس يلتقط أنفاسه قليلا ويخفِّض من نبض قلبه، فهو الآن ما يزال بين كابوس وواقع في الآن ذاته...

أشعل سيجارة والألم يعتصر قلبه وأخذ يفكر بتوتر شديد:

".. يا إلهي..!! هل هذا معقول؟ هل وصلت الأمور إلى هذه الدرجة؟ هل يحدث مثل هذا الأمر حتى في فرنسا؟؟ بلد العقد الاجتماعي وبلد فلاسفة الأنوار الذين أضاءوا كل أركان وزوايا أوروبا بقناديل قيم العدالة ليعرّوا ويكشفوا ظلمة الجور والتسلط!!.. ألم يخبرونا في كتبهم أن لديهم عدالة اجتماعية لا يضام فيها إنسان ولا يهضم فيها حق بشر؟ أين هي مبادئ الثورة الفرنسية؟ أين الحرية والمساواة والأخوة..؟.. 'طاز على ليبرتي وفراترنيتي وإكاليتي[1]!!'. هل من

[1] -"خسِئت الحرية والمساواة والأخوة إن كانت على هذا الشكل"

قام بهذا الفعل المخالف للقانون؟ كان دافعه ذاتيا عنصريا فقط أم يحمل دلالة ومعنى معينا؟ سواء أكان اللذان أقدما عليه مجرد ضابطين بسيطين في جهاز الدرك أم من أصدر إليهما الأمر بهذه الدورية ممن هو أعلى منهم رتبة؟ أليس هؤلاء رجال أمن وهم أول المعنيين بالسهر على احترام القانون؟؟ هل من يطبق القانون هو، للأسف الشديد، أول من يخرقه الآن؟.. 'يا لخيبة أمل جون جاك روسو بعد كل هذه القرون يحدث هذا في فرنسا!!'.. 'إيوا هذي هي السيبة!!'[1].. ما الفرق بين ما يقوم به هؤلاء وما يحدث في بلدان الجنوب الناكصة؟؟"...

لم يستطع جليل أن يحصر دموعا غزيرة انهمرت في تلك اللحظة من عينيه من جرّاء وقع الصدمة على نفسه ومرارة الإهانة التي لحقت به.. اختلطت الأفكار في ذهنه وتبعثرت الأوراق أمامه حول ما يحدث في دولة قدَّست القانون كفرنسا التي لم يخطر بباله أن تحدث بها مثل هكذا أفعال ليست من أعراف دول قطعت مع الظلم واللاعدالة منذ ثلاثة قرون مضت؛ فهل هذا كابوس أم هي حقيقة؟..

[1] -" إنها حقا لفترة تسييب وسيادة اللا قانون!!"

لا شك أن هذه الحادثة تشبه حالة الطوارئ التي تلجأ إليها الدول على إثر خطر أمني داهم، حيث تقذف بالقانون عرض الحائط وتلجأ إلى الوصفة المعتادة في بلدان الضفة الجنوبية من الأساليب التي يعرفها مواطني هذه البلدان.. فهل فعلا جليل شخص خطير ولا يعرف نفسه أم أنه يحمل اسما مطابقا لاسم شخص مطلوب للعدالة أو إرهابي؟

أمضى جليل ليلة مؤرقة.. لم يغمض له جفن إلا قليلا رغم أنه قضى يوما طويلا من العمل المتعب.. مستغرقا في تفكير عميق:

".. تبّا!!..تبّا!!.. لا بد أن أتقدّم بشكاية ضد هذه الدورية ومن دبّر لها..!! فهل يعقل مثل هذا الشيء في بلدٍ وليس أي بلد!!.. فرنسا!؟؟ نعم هذه فرنسا الألفية الثالثة!!..آخ.. آخ.. وما جدوى هذه الشكاية التي ستتقدم بها ضد جهة أمنية؟ فالمسألة واضحة جدا وربما ما خفي أعظم!! ولأية جهة سأتقدم بشكايتي؟.. أنا، لم يسبق لي في حياتي أن تقدمت بشكاية قضائية أو حتى شكاية عادية لإدارة عمومية؛ فكيف أقوم بهذا الأمر الآن؟.. لا!! لا!! سأتوجه بعد عطلة رأس السنة إلى أي مكتب محماة وأطلب استشارة قانونية، فهذا بلد قانون.. لن أسكت إطلاقا عن هذا التحرّش

المدل؛ فذنك الوغدان كادا أن يلحقا بي الأذى!!.. نعم كنت على وشك السقوط في مصرف مياه الأمطار بحاشية الطريق من جراء المباغة!!.. نعم كاد يغمى علي تلك اللحظة..!! نعم كادت تدهسني سيارة الدرك..!! لابد أن أحكي التفاصيل للمحامي.. كلا..!! كلا..!! لن أختار محاميا رجلا سأطلب الاستشارة من محامية امرأة، فالنساء أكثر تعاطفا ربما من الرجال!! أخ..!!أخ..!! لقد صدقت جدّتي لما قالت: 'المغطي بديال الناس عريان'.. تمهّل وتعقّل يا جليل..!! أنت مجرد مقيم أجنبي في هذا البلد بمعنى أنه يجب 'ألاَّ تتعنتر في بلادات الناس'.. ألم تُظلم في بلدك أرض أجدادك ومن أناس ربما أنت أشرف منهم على جميع الأصعدة؟؟ آه..!! آه..!! هل قدري أن أُظلم أينما حللت وارتحلت؟"...

لم يستطع جليل النوم تلك الليلة.. لأن الواقعة كانت عصيبة وهو ما يزال إلى حد الآن لم يصدق ما حدث، وبات يصعد وينزل مع حبل هش أو 'حبل راشي' كما كانت جدّته تقول عندما تنسَدّ المسالك أمام بصيرة المرء فلا يعود يعرف على ما يستقر في رأيه...

في انتظار انصرام عطلة رأس السنة، شرع جليل يبحث في الإنترنت عن منظمات حقوقية أو هيأت قضائية يطلب

استشارة عن بعد، وقد وجد إحداها ممن تستقبل شكايات المواطنين في كل القضايا ذات الصلة.. أرسل إليها شكايته بما سعفته به لغته الفرنسية آنذاك. لكنه لم يتلق أبدا أي رد منها على بريده الإلكتروني...

مرّت بضعة أيام على الحادثة، وقد هدأ روع جليل وبدأت مرارة ما حدث تخف يوما بعد يوم، وقرّر أن يعدل عن فكرة تقديم الشكاية وضد من؟ ضد حامي القانون؟ لم يُرِد أن يُلْفِت أكثر أنظار وأسماع إخوانه المغاربة أو 'العْرَب' كما يحلو للجالية المغاربية تسمية طائفتهم في فرنسا؛ فالأجدى به أن ينأ بنفسه عن وَيلِ إشارة الأصابع كما يقول المثل الشعبي: "خطيّة مستورة ولا ربح مكشوف[1]"...

بعد مرور أسبوع تقريبا أو عشرة أيام؛ لاحظ ذات مرّة وهو عائد بدراجته مساء، وفي نفس موقع حادثة التحرّش بواسطة الكمين، شاهد شخصين يتجولان بنفس المسلك الذي يسلكه إلى العمل؛ كان الرجل يرتدي معطافا وقبعة سوداوين وبرفقته سيدة ذات هندام محترم، تبدو أنها زوجته، وقد تعمّدا أن يلتقيا به بنفس نقطة الحادثة بالضبط، لكن دون أن يلفتا انتباه جليل أو يثيرا شكّه بهذه

[1] -"خسارة مستترة أفضل من ربح ظاهر"

المصادفة.. شعر أن هذا الأمر غريب شيئا ما، لكنه اعتبره عاديا أو من قبيل الصدفة فقط...

****

الفصل الثالث

"فَمِّي يَضْحَكْ وَالسَّاكْنْ فْ القَلْبْ ظْلاَمْ
صَبْرِي يَصْبَرْ للْعْدَا وَنَكْتَمْ هَمِّـي
وَنْدِيرْ كِمَا نْدِيْر فـي البحر العوام
نَزْحِي الاَعْضَا مْعَاهْ وَنْسَاعَفْ الاَغْشَامْ"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

بعد أن قضى سنته الأولى في فرنسا.. فكّر جليل أن يطلب التسجيل في أحد البرامج الحكومية الاجتماعية الإدماجية ليستفيد من تكوين مهني إضافي أو القيام بتكوين مؤهل في البرامج الخصوصية مدفوعة الأجر أو أن يستأنف دراسته العليا بالجامعة إلى جانب العمل لتأمين تكاليف المعيشة، وقد راودته فكرة استثمار جزء من أجره الشهري في أي تكوين مهني سواء في المعلوميات أو غيره من التكوينات المؤهلة، لأنه يتوفر على أسباب موضوعية تؤهله لذلك فهو

حاصل على إجازة جامعية، بالإضافة إلى أنه ضاق ذرعا بالاشتغال في ظروف قاسية في الفلاحة...

استقّر رأيه على أن يجري تكوينا في مجال الصحافة، لأنه كان يميل إلى الكتابة الصحافية منذ سنوات الدراسة بالكلية على سبيل التمرين وقد سبق أن نشرت له إحدى الصحف بعض المقالات في ملاحقها الأسبوعية.. ابتدأ يستفيد من تكوين عن بعد في مجال الصحافة، بعد أن تسجّل في معهد تكوين خاصة في باريس؛ وكانت كل الأمور تسير بصفة عادية، حيث يرسل المركز البرنامج والمواد الدراسية للشهر الجاري ملحقة بمواد التقويم للشهر الماضي بصفة دائمة أول كل شهر، بعد أن تتوصل بالواجب المادي الشهري منه...

بعد مرور بضعة شهور من التكوين.. اقترح المركز إجراء تداريب تطبيقية لمدة أسبوع في المعهد؛ يتحمل المتدرب مصاريف إقامته الشخصية فيما يقدم المركز وجبات الغداء طيلة مدة التداريب.. لم يعترض جليل على هذا الاقتراح بل حبّذ هذه الخطوة رغم أنها كلفته أجره الشهري بالكامل، واعتبرها فرصة ثمينة يزور فيها باريس هذه المدينة التي طالما شغلت باله وخياله، وقد كان يسمع عمّا

تحتويه من آلاف المؤسسات والمراكز العلمية والثقافية الفرنسية والدولية، فضلا عن مآثرها وبنيتها التي تغري كل شخص بزيارتها ولو لمرّة واحدة في حياته أو كما كان يقول صديقه عبد النبي أيام شقاوة الدراسة بالجامعة: "الله يعطينا شي حجّة فباريز" تيمُّنا بما استأثرت به من حضارة إنسانية على كل الأصعدة...

****

****

الضيعة، نهاية أبريل 2009...

"هَكْذَاكْ سَاعْفَتْ بْصَبرِي صْدُود الاَيَامْ
قَلْ جَهْدِي وَكْثَرْصَمْتِي وَصَمْتْ فَّمِّي
مَا نْطِيقْ عَلَى صِلْحْ وَلَا نَجَمْتْ الخْصَامْ
مَشْتَغَلْ بْالدَّنْيَـا الفَانِيـا بْهَّمِي"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

وسط صفوف أشجار الكروم بالضيعة.. يتحدث مع بوجمعة زميله في العمل، هذا المهاجر المغربي الذي أفنى أكثر من سنوات عمر جليل كلها في العمل الشاق بالضيعات الفلاحية بالجنوب الفرنسي، التي ابتدأ الاشتغال بها منذ بداية السبعينات، وقد نال منه الدهر بحق؛ اعتراه السّكري وارتفاع الضغط الدموي وضعف البصر واكتسح الصلع رأسه وشاب ما تبقى من شعيرات على ناظريه، منتظرا لحظة التقاعد لكي ينهي معاناة العمل الذي لم يحِن بعد؛ فالرجل يشتغل بتكلُّف ويحمِّل نفسه ما لا طاقة لها به، مبررا هذا الأمر بأنه لن يتنازل عن مستحقات التقاعد التي يرغب ألا تقل عن العتبة...

لا يكاد بوجمعة يتوقف عن تكرار سرد حكاية مضايقة أحد العمال المغاربة الآخرين له؛ فظروف العمل البدني في الأوراش غالبا ما ينشب عنها كيد البعض للبعض الآخر والوشاية وغيرها من أمراض النفوس، تكون بدافع التنافس وكسب رضى المُشغِّل وهو ما يجعل بعض العمال يشتغلون بشكل جنوني يرهق الآخرين، مما يؤدي إلى شنآن بين العمال أو قد يكون بدافع النيّة السيئة لبعضهم لإجبار من لا يساير وثيرة وإيقاع العمل الشاق التخلّي عن العمل في الضيعة وترك فرصته للمتصيّدين والمتملقين الذين يستجدون المشغّل لتعويض المُتخلّي بقريب أو بصديق أو حتى لتمديد فترة العمل لصالحهم، وكل ذلك بسبب كثرة طالبي الشغل وقلّة الفرص؛ خصوصا مع توالي وفود المهاجرين المغاربة المقيمين بإسبانيا الباحثين عن عمل افتقدوه بإسبانيا ولاذوا بالبحث عنه في دول الشمال الأوروبي...

بدأ بوجمعة يسبّ ويشتم قبيلة غريمه وكل المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها في المغرب، ثم يختم كلامه بعد أن ينتهي من حصة التفريغ أو التداعي الحر على مسمع جليل، الذي كان يفسح له المجال للتنفيس من احتقانه وضغطه النفسي، وقد يثير هذا الموضوع من جديد من باب المزاح مع بوجمعة فقط أو لكسر حالة الصمت الرتيب الذي يخيّم بين

الفينة والأخرى عليهما.. فالعمل الشاق يتطلب "تقرقيب الناب"[1] مع من بجانبك لتزجية وقت "تمارة"[2]...

يوصي بوجمعة جليل بعد أن ينتهي من سرد هذه الحادثة بتفصيل مُمِّل: "تهَلاَّ آ الصحراوي هدوك عملهم أُدامك (قدامك) ماشي اللُّور[3]!!".. يضحك جليل دون أن يبدي موقفه مما قال بوجمعة، ولكن كلام الرجل يحمل في طياته تركِة ثقيلة أو إرثا عويصا من العقلية القبلية والانتماء الشوفيني للقبيلة والإقليم والبيئة، الذي يحملونه مغاربة العالم معهم حتى بعيدا عن مسقط رؤوسهم...

يشرح جليل لبوجمعة الفرق بين ما يعتقده المغاربة والعرب بصفة عامة في ثقافتهم المجتمعية وبين ما يؤمن به الأوروبين والفرنسين بصفة خاصة في ثقافتهم المجتمعية المستندة إلى العلم والمعرفة، وخاصة القانون الذي يجرِّم أن يُنعتَ أو يُوصفَ أحد المواطنين في فرنسا بأصله العرقي أو انتمائه الديني أو حريته الفردية لأن الشعب الفرنسي متشكل من مئات الأعراق والمعتقدات...

[1]- يعني تحريك الأسنان والفكين وعدم تركها مطبقة على بعضها، وهي إشارة إلى الحديث والكلام
[2] - تمارة: الأشغال الشاقة
[3] -"احرص أن تجعل من يبغضك أمامك وليس خلفك اتقاء شرّه"

لهذا، فإنه يُعرّض نفسه كل من أصدر وصفا قدحيا أو عنصريا أو من قام بازدراء عقيدة ما أو.. أو.. في حق مواطن آخر للمتابعة القضائية بمجرد وضع شكاية من طرف المشتكي، لأن الدولة تسعى لرأب الصدع بين مواطنيها وجعلهم يدينون بدين المواطنة واحترام العقد الاجتماعي وهو دستور فرنسا الذي ينبني على 'الحرية والأخوة والمساواة'...

صمت جليل قليلا بعد أن تذكّر حادثة تحرش الدرك الوطني به منذ أربعة شهور فقط.. مُشكّكا بنفسه في ما يلقي على مسمع زميله!!.. أخرج نفسا عميقا من صدره ثم استدرك كلامه، محاولا أن يتشبث بأمل جديد، بالرغم ممّا يحدث من بعض الخروقات المعزولة، فالدولة تحتكِم للقانون...

أخبر جليل بوجمعة أنه سيتوقف نهاية الأسبوع عن العمل، لأنه ينوي السفر إلى باريس للقيام بتداريب ميدانية، وقد طلب منه الصّفح عمّا قد يكون صدر منه من فلتات لسان أو غيره خلال فترة الشهور الماضية التي قضياها سويا، وقد كانت فرصة حقيقية تعرفا على بعضهما البعض، حيث حكى له بوجمعة تاريخه الطويل وتجارب حياته المريرة وحتى

المضحكة أحيانا.. ولا يكون الشخص أصدق ما يكون في حالاته أكثر منها في لحظةٍ أنهكه فيها التعب والعياء الشديدين تحت قيظ شمس صيف أو صقيع شتاء في حقول مكشوفة، عندها يتحول الشخص إلى شبه شخص مُخدَّر يعترف بأمور شديدة الخصوصية تجعله هو نفسه ومن حوله يضحك عليها حتى الثمالة...

أخبره بوجمعة بدوره كذلك أنه سيفتقده كثيرا بعد أن أَلِف الحديث معه والتندّر سويا خلال المدة المنقضيّة، وتمنّى له التوفيق في التجربة الجديدة، وهو الذي كان يجري على لسانه دائما المثل الشعبي: "بدّل الرحبة تجبر الرحمة".

****

****

باريس، ماي 2009...

"كِيْفْ تَهَنَّا يَا مَنْ يَرْجَاكْ سِيفْ عَزْرَيْلْ
القْبَرْ وَالمَلَكُوتْ وَيُومْ السُؤَالْ
كِيفْ تَعَلَّى يَاللِّي مَازَالْ تَرْجَعْ ذْلِيلْ
يَالّلي قَالَتْ لُه نَفْسُه انْتَ الَمفَضَّلْ؟
آشْ مَاقَاسْكْ يَا بَنْ آدَم تَرْجَعْ عْطِيلْ
فْ النْعَاشْ تَتْرفَد وَلَو تَكُون ذُو مَالْ"
من قصيدة المكناسية: الصوفي سيدي قدور العلمي (1742-1805)

نزل جليل من القطار.. جرّ حقيبته على رصيف المرفأ وهو ينظر يمينا ويسارا في رواق أقدم وأهم محطة قطار بباريس 'شارل دوغول'. لم يشعر جليل بخوف في حياته كما يشعر به اليوم، لم يسبق له أن زار باريس مدينة 'الجن والملائكة' كما وصفها عميد الأدب العربي طه حسين وقد أحسن في دقّة الوصف لهذه المدينة التي بحق أصبحت بوتقة اعتُصِرت فيها شُهْد الحضارات الإنسانية بمجملها عبر مراحل تطور البشرية...

كان لديه حلما أن يتجوّل في يوم من الأيام في 'جادة الإليزيه' ويزور 'برج إيفل' ويرتاد متاحف باريس ومسارحها ويتمشّى في حدائقها ويحتسي فناجين القهوة في مقاهيها المنتشرة على ضفاف نهر السين ويتنفس هواء عاصمة الأنوار كما سبق أن قام بذلك كثير من محظوظي هذه الدنيا ممن مروا من هنا ذات يوم...

لم تدُم الرحلة بين مرسيليا بالجنوب الفرنسي وباريس الواقعة في الشمال، والتي تمتد على ما يزيد عن تسع مائة كيلومتر، مدة طويلة فقد قطعها القطار فائق السرعة (TGV) في أربع ساعات فقط.. يتذكر جيدا ذلك اليوم؛ كان الطقس صحوا بباريس ولا يختلف عمّا تركه في الجنوب. كان يومه السبت وقد راعى الذهاب يومين قبل موعد التداريب ليستفيد من وقت مسبق لاكتشاف المكان، خاصة وأن المقاطعة التي يتواجد بها مركز التكوين كانت بضواحي باريس أو 'إيل دو فرانس' كما يلقبها الفرنسيون...

نزل إلى مترو الأنفاق وركب القطار المتوجه إلى ضاحية "برونوا" التي اكترى بها غرفة مؤثثة قبل مجيئه بأسبوعين.. ما أن وصل القطار إلى وجهته وخرج من محطة القطار ليستقلّ الحافلة التي تتوجه إلى الحي الذي تتواجد به

الغرفة، حتى اتصل به صاحب النّزل وأخبره أنه سيأتي ليأخذه من محطة الحافلة إلى النّزل، وقد اتّفق معه مسبقا أن يحضر لاستقباله في مكان نزوله في الحي.. حضر بسيارته ثم ذهبا وهما يتجذبان أطراف الحديث...

كان غوديفيك رجل ضخم البنية ذو بشرة شقراء وشعر أصفر وعينان زرقاوين، كان يتحدث الفرنسية بلكنة تغلب عليها إحدى لغات أوروبا الشرقية التي تظهر أصوله ربما الروسية أو الأوكرانية.. سلّم غوديفيك مفتاح الغرفة لجليل بعد أن قدّم له فنجان قهوة في المطعم الذي يسيّر في نفس البناية بالطبق الأرضي، وقد حوّل الطابقين العلويين إلى غرف مؤثثة منفردة يؤجّرها.. أخبره عن مكان أقرب متجر بالحي وعن أماكن أخرى...

تعجّب جليل من تعامل الرجل معه بهذا اللطف الزائد شيئا ما عن العادي، لكنه استبشر بهذا الأمر وتمنّى أن يكون هذا عربون حظ سعيد وانطلاقة جديدة منتظرة في هذه المنطقة.. كان كذلك ينوي بعد الانتهاء من التداريب، أن يمكث بباريس مدة كافية يكتشف خلالها المدينة ويبحث عن فرصة ثانية للعيش والعمل بها لأنها منطقة بها آفاق وفرص إضافية للاندماج...

صعد جليل إلى الغرفة ليتأكد إن كانت هي نفسها التي شاهد صورها في ملصق عرض الكراء على الإنترنت كما اتفق مع صاحب النّزل.. لم يأبه لهذا الأمر كثيرا فلم يعد يتذكر شكلها كما رآه سابقا، المهم أنه يتوفر الآن على سكن مؤقت لمدة شهر كامل وبعدها يفعل ربك ما يريد...

وضع حقيبة ملابسه إلى جانب السرير وحقيبة حاسوبه فوق المنضدة جانبا.. تنبَّه إلى أنه يلزمه الذهاب لإحضار مواد غذائية من المتجر، لأن الساعة كانت تقترب من السادسة بعد الزوال، وإن لم يذهب في الوقت المناسب فجميع المحلات التجارية تغلق في غضون مدة قصيرة قبل الغروب.. قبل أن يهم بالخروج من الغرفة، سمع طرقا على الباب، فخاله غوديفيك قد حضر كي يسدي خدمة ثانية نسى أن يقدّمها له؛ فالرجل أبدا منذ الوهلة الأولى لطفا زائدا!! فكّر بنبرة مازحة: "..لعله آت إلي ببيتزا آخرجها لتوِّها من الفرن!!.. ألا يملك مطعما في الأسفل!!؟؟"...

فتح الباب بابتسامة عريضة.. لم يكن من خاله في مخيلته ولكن كان شخص مقيم بغرفة مقابلة لغرفته بنفس الطابق. ألقى الرجل التحية على جليل ثم عرض عليه أن يأتي ليشرب شيئا معه في غرفته؛ ربما أراد أن يبادر بمقدمة لطيفة

لحسن الجوار.. اعتذر منه جليل وشكره على لطفه وكرمه، وأخبره أنه يلزمه جولة للتسوق بالمتجر قبل موعد الإغلاق.. ودّعه بعد أن شكره مرة ثانية ووعده أن يجالسه متى تسنّى له ذلك أو يدعوه لاحتساء فنجان قهوة في مكان مريح.. لاحظ جليل خلال محادثته هذا الشخص الذي تعمّد ترك باب غرفته مفتوحا، أنّ هناك ثلاثة رجال آخرين يجالسونه إلى طاولة وضعت فوقها قناني جعة ومشروبات غازية...

نزل الدّرج ثم خرج متوّجها نحو أحد المتاجر التي رآها عندما كان قادما للنَّزل.. قطع مسافة طويلة مشيا على الأقدام للذهاب إلى المتجر عبَر خلالها أزقة وشوارع متعددة دون أن يصادف أحدا في طريقه، ماعدا عبور سيارات بين الفينة والأخرى في كلا الاتجاهين.. أطلق العنان لبصره ينظر إلى البيوت على جانبي الشوارع والأزقة التي لا ينبعث منها حسِيسا وكأنها مدينة أشباح؛ يسودها الهدوء حتى قبل الغروب...

اقترب من السوق الممتاز الصغير، فلاحظ حركة شبه منعدمة للزبائن بمحيطه كما بالداخل.. أخذ جليل سلة صغيرة ليتبضّع وشرع يتنقل رويدا رويدا بين ممرات الرفوف. مرّا شابان يتبضّعان كذلك بجانبه، مُلقيا أحدهما على

مسمعه عبارات بإيحاء عنصري وكأنه يتوجّه به لشخص مفترض.. لم ينظرا مباشرة إلى جليل بعد أن اقترب أكثر منهما وقد تظاهرا ببحثهما عن شيء ما في الرفوف.. أنهى جولته بالمتجر بعد أن ابتاع ما يحتاج إليه من لوازم...

اتّجه بعدها صوب أحد الشباكين لتمرير المقتنيات وأداء ثمنها؛ وقبل أن يصل جليل إلى الشبّاك الذي كان يقف أمامه ثلاثة زبائن أو أقلّ من ذلك، وهم منشغلون بوضع مقتنياتهم فوق البساط الدوّار.. فجأة..!! تعمّد شخصان، يبدو من لباسهما المتشابه أنّهما من أحد المعاهد الدينية للطائفة اليهودية، المرور بين جليل والزبائن الواقفين في الصف، مخترقين إلى الجهة الأخرى المتواجد بها شبابيك الأداء المغلقة...

كانا يرتديان بدلتين بلون أزرق بحري أو أسود ويضعان فوق رأسيهما قبعتين دائريتين بنفس اللون، تناثر شعر أشعث خفيف على وجيههما.. أزاح أحدهما بيده طرف بدلته من جهة الخصر متعمّدا إظهار مسدسه الأوتوماتيكي المشدود إلى خصره بسلسلة تصل بينه وبين حزام السّروال. لم يستديرا في اتجاهه المنتظرين في الصف ولكنهما بقيا واقفين قريبا...

مرّ جليل بالشباك الذي كانت تعمل به شابة ذات سحنة مغاربية وقد شاهدت المشهد عن قرب، فبدأت تتطلع في وجهه وهي تمرّر مشترياته قطعة قطعة، وكأنها تريد أن تبلغه رسالة صامتة: "كن حذرا!!".. ربما لأن هذان الشخصان ظلا واقفين في مكانهما غير بعيد.. كانت نظرات الشابة تحمل شكا وريبة، فلربما قد بلغ إلى علمها شيئا من مشغلها أو ربما يكونا ذنك الشخصان مالكا المتجر أو على علاقة بصاحب المتجر أو غيره!!؟؟...

خرج يحمل في يديه أكياس مقتنياته ثم عَبَر موقف السيارات الواسع المتواجد أمام المتجر، ليختصر المسافة لكي ينتقل إلى الشارع المؤدي صعودا إلى النزل.. وإذا به يمرّ بجانب شخص لم يتوقع في حياته أبدا أن يراه على مقربة وبشكل مباشر!!.. مرّ بجانب إفيكدور ليبرمان وزير الدفاع الإسرائيلي في حكومة أريل شارون آنذاك!!.. لم يصدّق جليل عينيه ثم بدأ ينظر إليه مجدّدا، آنذاك تأكد تماما أنه هو ليبرمان وليس شخصا آخر يشبهه.. كان واقفا إلى جهة اليسار بجانب صندوق سيارته المفتوح وقد بدأ هو كذلك ينظر إلى جليل مباشرة...

استمرّ جليل في السير لبضعة أمتار.. لكن لم يمهله الفضول من أن يستدير مرّة أخرى ليعاود النظر ناحية ذاك الشخص.. كان قد أغلق صندوق السيارة وربما ركب من دون أن تخرج السيارة من مكان توقفها، لم تتضح له ماركة السيارة ولا لونها، لأنه رأى السيارة من الخلف وكان باب الصندوق مرتفعا نحو الأعلى...

عاد من نفس الطريق الذي أتى منه من النّزل، وقد أنْسَته مصادفة إفيكدور ليبرمان في موقف السيارات ما حدث معه في المتجر...

شرد فكر جليل طوال المسافة بين المتجر والنزل، محاولا تصديق ما حدث معه وما رأى بأم عينيه:

".. يا إلهي..!! هذه ليست مصادفات!! هناك أمر خطير يجري في الخفاء ولكن ما هو؟ ما حدث لي منذ خمسة أشهر بالجنوب في عملية تحرش الدرك الوطني، وما كان يُلقي به بعض المغاربة من إشارات وإيحاءات تضعني موضّع شبهة..!! كل هذه الحوادث يربطها خيط واحد ولها علاقة بتهمة ما، وليس أيّة تهمة..!! فهذه تبدو أنها مصنفة في درجة اللون الأحمر التي لها علاقة بتهديد الأمن القومي لفرنسا..!! ماذا ستكون يا ترى؟ لعلها تهمة الإرهاب التي رميت بها دون

علم مسبق..!! وربما تنقُّلي إلى العاصمة سيزيد من رفع درجة الخطر لأقصاها عند جهاز الاستخبارات الفرنسية (DGSE)، والمتابعة ستكون لصيقة ومشدّدة من طرف عناصر جهاز مكافحة الإرهاب وربما تكون أجهزة أمنية خارجية ممن تعتمد عليها فرنسا في أمنها كالموساد الإسرائيلي وأجهزة الاستعلامات بدول شمال إفريقيا حاضرة أيضا.."

وصل إلى الغرفة قبيل الغروب.. ولكن في طريق عودته ازدادت أزقة وشوارع برونوَا وحشة أكثر فأكثر، فأوجس خيفة في نفسه من هذه المدينة التي أشهر بها أحدهم في وجهه مسدسا حقيقيا بصفة غير مباشرة، وصادف بها أكبر سفاح في القرن الواحد والعشرين مجرم الحرب إفيكدور ليبرمان وزير الدفاع الإسرائيلي الذي قاد حرب تموز في لبنان وحرب غزة المتتاليتين في 2006 و2008 وقتل فيها آلاف المدنيين العزل ودمّر البنية التحتية بأكملها لبلدين...

استلقى على السرير دون أن يغيّر ملابسه.. واستغرق يفكّر مليّا في الأمر، محاولا أن يموّه نفسه ويقنعها بأن الشيء الذي رآه مشدودا إلى خصر الرجل اليهودي هو محفظة نقود فقط وأن الرجل الذي رآه في موقف السيارات ليس الصهيوني

ليبرمان ولكنه رجل يشبهه فقط، وأن الحول الذي بالعين اليمنى لهذا الشخص ولحيته التي يملأها الشيب هي محض الشّبه بالصدفة فقط لا أكثر..!!

****

****

مركز التكوين، منتصف النهار...

لاَ فِي الجَبلْ وادْ مَعــلُوم   ولا فِي الشْـــتَاء رِيـحْ دَافِي
لاَ فِي العْدُو قَلْب مَرْحُوم   ولا فِي صَهْيون عَهْد وَافِي
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

صرير سيارات النجدة والشرطة تملأ الشارع أمام مركز التكوين، تنتظم فرق من الشرطة بلباس أسود واضعين فوق رؤوسهم خوذات ومدججين بأسلحة ذات طبيعة حربية في صفوف يمينا ويسارا بمحاذاة بوابة المركز، ورجال بلباس مدني مفتولي العضلات وآخرين ببدلات رسمية دخلوا إلى باحة المركز، وانتظموا حول المداخل وأمام الدرج الذي يعتلي إلى الطابق العلوي الذي تجري فيه الدورة التكوينية وحصص التداريب التي يحضرها جليل...

صعد مدير المركز الدرج إلى الطابق العلوي رفقة بضعة رجال من فرقة التدخل في مهمات خاصة.. يطرق باب القاعة التي يدير فيها أحد المكونين حصة تكوينية حول تقنيات الإعلام والرياضة.. كان هذا الشخص مدربا سابقا

لكرة القدم في أحد بلدان جنوب شرق أسيا، وقدّم كذلك نفسه أنه متخصص في شؤون الرياضة والإعلام.. كان كذلك على علم بشيء مما سيحدث لاحقا، لأنه خلال فترة استراحة القهوة وهو يتحدث إلى المجموعة في باحة المعهد أمام قاعة الأكل، همس قريبا من أذن جليل وطلب منه، بعد أن غمزه بعينه من تحت نظاراته، أن يسأله سؤالا عن التلاعب بميزانيات الفرق أو شيئا من هذا القبيل عندما يعودوا إلى القاعة لاستئناف ما كانوا بصدده من حديث..!!

نصحه هذا المؤطر كذلك بعد أن تفرّق المتدربون يتحدثون إلى بعضهم البعض في ثنائيات، وقد بقي إلى جانبه بالإضافة إلى متدرب واحد فقط وقال له: "عليك أن تذهب إلى سويسرا أو بريطانيا إذا كنت تبحث عن جو أكثر حرية وتقبّلا من الحكومات!!".. ضحك جليل مبرزا له أنه فهم قصد كلامه وأجابه: "سيدي، أنا لست ناشطا حقوقيا ولست معارضا سياسيا ولست فارا من المغرب!!"...

لم يعقب المؤطر على كلام جليل، وتحركوا جميعا بعد انتهاء فترة الاستراحة للصعود إلى القاعة لاستكمال الشطر الثاني من الحصة الصباحية.. بعد الدخول، أشار إليه المؤطر لكي يضع عليه السؤال الذي طلب منه خلال

الاستراحة إثارته لكي يتحدث ويشرح هذه النقطة.. فطن جليل إلى حديثه وحركاته التي لا تخلو من احتيال يثير الضحك فلم تنطوي عليه أحابيله، ولهذا بدا لبقا أكثر أمام زملائه فقام بوضع سؤال مغاير لما أراده المؤطر الذي أجاب عن سؤاله باقتضاب وعاد ليتحدث من تلقاء نفسه عن النقطة التي طلب منه إثارتها...

طُرق الباب مرة ثانية.. توقّف المؤطر عن الحديث ثم نهض من مكانه الذي كان قريبا من جليل. فتح الباب ثم استأذنه الطارق لبرهة من الزمن، خرج بعد أن جرّ الباب دون أن يوصده تماما.. تناهى إلى سمع المتدربين في القاعة بعضا من كلمات الحوار الدائر أمام باب القاعة للحظات. دخل بعدها المؤطر ثم سأل:

- من هو السيد عبد الجليل صحراوي؟

أجابه جليل:

- أنا..!! هل هناك أمر؟

أخبره:

- أرجوك سيد عبد الجليل صحراوي، إدارة المركز تخبرك أن تحضر في الحال!!

- نعم، حالا!!

همّ جليل بالخروج من القاعة تاركا حقيبته في مكانه، لكن المؤطر أخبره أن يأخذ أغراضه كما أبلغه مدير المعهد.. طوى حاسوبه وجمع رزمة الأوراق التي كانت أمامه على الطاولة ووضعها في حقيبته اليدوية ثم غادر القاعة مودعا زملائه على أن يلتقي بهم مجددا في الغداء الجماعي الذي يقيمه المركز لفائدة المتدربين طيلة أيام التداريب في المطاعم القريبة في المدينة...

ما أن تخطّى عتبة باب القاعة حتى أبصر أربعة رجال بزي مدني مسلحين بمسدسات تحت آباطهم مربوطة إلى ظهورهم ومدير المركز إلى جانبهم.. هزّ المدير يديه فاتحا كفيه معبرا عن أسفه ربما من حدوث هذا الأمر في معهده وأخبره: "أسف جدا سيد صحراوي!! لقد صدر في حقك أمر بالاعتقال!! أنت ملزم بالذهاب مع الشرطة لاستكمال مجريات التحقيق!! أرجوك تفضل..."

نزع أحد الشرطيين صفدا من حزامه ثم أمسك بمعصم جليل الأيمن ثم أوثق عقاله ووضع زوج الصفد الثاني في معصمه الأيسر ثم نزلوا الدرج تباعا.. لم يشعر جليل بالخوف هذه المرّة وكأنه يريد فقط معرفة تهمته التي لم

يستطع تخمينها طيلة هذه السنوات. تساءل مع نفسه: "دعنا نرى ما هي هذه التهمة؟ حتى أستريح من مطاردة بدون ذنب..!! ذكرك الله في الملإ الأعلى يا جدّتي، الآن أدركت المثل الشعبي الذي كنتِ تُرددين: 'كل متبوع مقبوط'.. لعلها تكون نهاية هذا الثقل الذي حُمِّلت وزره وأوزار قوم لست أدري من هم!!"

مروا بباحة المركز التي رأى فيها عناصر إضافية من فرق شرطية مختلفة، فكل الأجهزة الأمنية معنية بالحضور للعملية ثم خرجوا من البوابة.. فتح من كان ينتظر بالخارج باب سيارة ليست بلون سيارات الشرطة، ركب جليل ثم تلاه من يشاركه الصفد وركب الثاني إلى اليسار واثنان في الأمام وانطلقت السيارة متبوعة بسيارة شرطة عادية مسبوقين بدراجين أمامهم...

بعد مدة قصيرة من انطلاق السيارة إلى وجهة غير معروفة، ناول الشرطي، الذي كان راكبا إلى جانب السائق في الأمام، الشرطي الثاني الذي إلى يسار جليل وشاحا أسودا وطلب منه أن يضعه على عينيه لكي يمنعه من رؤية الطريق الذي يتجهون فيه.. دامت مدة السير على الطريق ساعة تقريبا، لم يتوقف خلالها من كان في الأمام عن تلقي مكلمات

في هاتفه أو جهازه اللاسلكي.. يجيب عليها بكلمات وتعابير مقتضبة. ساد الصمت بداخل السيارة إلا من بعض الكلمات القليلة المتبادلة بين من كانا في الأمام...

وصلت السيارة إلى وجهتها فتوقفت للحظة، خمّن جليل أنها أمام حاجز تنتظر إزاحته؛ فجميع مداخل الإدارات والمؤسسات والشركات في فرنسا تعتمد هذا النظام والذي يكون في الغالب أوتوماتيكيا يفتح ويغلق بواسطة تحكم آلي.. استرسلت السيارة في السير بعدها لمدة قصيرة ثم توقفت ثانية.. نزل الشرطيان اللذان كانا في الأمام أولا ثم فتحا البابين الخلفيين. أزاح الضابط الجالس إلى يسار جليل الوشاح الأسود عن عينيه لكي يستطيع الرؤية من جديد، فخرج الضابط الثاني الذي يشاركه الصفد في يده اليسرى، واضعا كف يده اليمنى على رأس جليل كي لا يصطدم بحاشية الباب من الأعلى...

نزل جليل ووقف على الأرض محاولا أن يتأقلم مع ضوء الشمس الذي لفح عينيه اللتين كانتا معصوبتين بالوشاح الأسود طوال الطريق، وقد تاقتا إلى معانقة النور والضياء مجددا.. بدأت الرؤية تستقر شيئا فشيئا أمامه.. مشوا جميعا في اتجاه بناية، يبدو أنها على أطراف المدينة

لأنها محاطة بمجال أخضر ولأن حدّة الضوضاء قلت ولا يصل إلى آذانهم صخب وهدير حركة السير التي تكون بالمجال الحضري...

دخلوا جميعا عبر بوابة تمّ فتحها بواسطة بطاقة أوتوماتكية ثم نزلوا الدرج إلى طابق تحت أرضي، ومروا بممر طويل واستداروا في اتجاه غرفة قام بفتحها أحدهم، دخل الضابط متبوعا بجليل ثم فكّ الصفد الأول من يده، تاركا الصفد الثاني يطوّق معصمه هو؛ ثم مرّر يديه على ملابس جليل من أسفل الإبطين هبوطا حتى القدمين ثم أخرج من جيب السروال محفظته.. فتحها وسلّ ما بداخلها: أوراق نقدية وبطاقة الإقامة ورخصة السياقة وبطاقة فيتال وبعض صور الهوية، أعاد البطائق إلى ثنايا المحفظة ثم طواها ومدّها له:

- يمكن أن تحتفظ بحاملة أوراقك..!!

أشار الضابط الثاني بأصبعه: "لديك سرير للاسترخاء" ثم أضاف: "وهذه قنينة ماء فوق المنضدة لتشرب..!!"..
همّا الضابطين بمغادرة الغرفة، ثم استدار الأول منهيا كلامه مع جليل: "بعد أن تستريح وتهدأ سيأتي من يحرر المحضر..!!".. اشتدّت حيرة جليل أكثر فأكثر عندما أدرك أنه

سيخضع في تلك اللحظة للحراسة النظرية، فحاول أن يستفسر عن سبب هذا الإجراء القانوني:

- سيدي هل ممكن أن أعرف لماذا اعتقلتموني؟

أجاب نفس الضابط:

- لا نستطيع أن نخبرك بأي شيء..!!

أراد جليل أن يضيف شيئا فقاطعه:

- لا ندري أي شيء عن هذا الأمر!!.. سوف تعرف ذلك مع المحقّق بعد ساعتين..!!

ألحّ هذا الضابط على جليل بعد أن همّا بالخروج من المحتجز:

- أرجوك كن متعقلا ومسالما ولا تدفعنا لتعامل خشن..!!

خرج الضابطان بعدها من المحتجز، آخذا أحدهما الباب من ورائه.. سمع طقطقة أتوماتكية.. لقد أوصد عليه الباب!!.. تذكّر جليل أنه كان يحمل حقيبته عندما اقتادوه من بوابة المؤسسة لكن بعدها لم يشعر من أخذها منه، لأنه كان مذهولا من هول الصدمة، كمن يوجد في حالة تخدير، فلم يعد يركز في ما يجري حوله...

جلس على السرير الذي كان بحجم أريكةٍ في عيادة طبيب ثم جال بعينيه.. محدّقا النظر إلى زوايا الغرفة التي تشبه في شكلها حجرة الفحص الطبي في عيادة أو مستشفى.. وُضعت جانبا منضدة، عليها قنينة ماء إلى جانبها ستار بلاستيكي بلون أبيض يخفي وراءه دورة المياه ومغسل ولفافة ورق صحي...

شعر جليل بمغص في معدته فنهض ليختلي في دورة المياه، ولكنه ما أن جلس على مقعد المرحاض ورفع رأسه للأعلى حتى أبصر كاميرا مراقبة مثبتة أعلى الستار، لا شك أنها ترصد من يستعمل دورة المياه، بالإضافة إلى كاميرا ثانية مثبتة بزاوية مقابلة. طأطأ رأسه غير آبه بها وقد علّق على الأمر في نفسه: "تيصوروا الواحد حتى وهو يخرى.. فين الخصوصية؟؟"

أدرك جليل أن الشخص المعتقل الموضوع تحت الحراسة النظرية مباح مراقبته في كل شيء حتى في تفاعلاته البيولوجية.. استلقى على أريكة تَصوَّر أنه قد استند إليها مئات المذنبين والذين تورطوا في جرائم ممن مروا بهذه الحجرة من قبله.. استغرق يفكر عميقا:

"..آه..آه..!! يا له من حظ نحس وقدر تعس!! غادرت وطني الذي خشيت أن يصل بي الأمر إلى ما أنا عليه الآن بدون وجه حق، ولكن قدري أبى إلا أن يصيبني في أعرق ديمقراطيات الدنيا.. فرنسا..!! نعم فرنسا التي علّمت أمم الدنيا فلسفة القانون!! ها أنت يا جلّول تتجرع بها ذلا يحسبه من لا يعرف الواقع عزا..!! آخ..!! آخ..!! لو كنت لِأَطَّلع على الغيب وعلى وضعيتي هذه الآن؛ لنِلت شرف صفع السفاح إفيكدور ليبرمان مجرم حرب تموز بلبنان وغزة المحاصرة، وأبصق على وجهه القبيح وأنوب بهذا الفعل عن الثأر للشعب العربي، وهذا أضعف الإيمان لأنني لست مجرما مثله لكي أقتله وإن كان يستحق حكم الإعدام!! ولكن ما هي المحكمة التي تجرؤ على إصداره وتنفيذه في حقه؟؟ رغم أنه قتل هو وجنرالاته آلاف الأطفال الأبرياء والنساء والمدنيين العزل بدم بارد أمام أعين عالم متواطئ يسكت على شناعات من يشاء ويقيم الدنيا ولا يقعدها على آخرين؟؟.. لو تهوّرت يا جليل وقمت بهذه المجازفة لفجّر رأسك بمسدسه الذي كان موضوعا في صندوق السيارة ومحشو بعشرات الطلقات!! وما أدراك أن السيارات التي لم تنتبه إليها بجانبه بها قناصة من حرّاسه الذين سيفرغون في جسدك عشرات الطلقات ترديك قتيلا؟؟ وسيمرّر الإعلام الفرنسي في نفس

الليلة صورك مدرّجا في دمائك، مرفقة بتقرير صحفي صهيوني متواطئ سيقدمك للمواطنين الفرنسيين والعالم أجمع على أنك إرهابي تم قتلك قبل أن تفجر مدرسة يهودية أو محطة ميترو أو المتجر الذي خرجت منه لتوّك!! وحتى إذا شاءت قدرة الله الخارقة أن تمدّ في عمرك، وكان القضاء الفرنسي عادلا، فأقل ما ستُقدّم به أمامه هي ارتكاب جريمة معاداة السّامية التي ستقضي بسببها عقوبة سجنية ثقيلة.. كلاّ..!! ثم كلاّ..!! مستحيل أن أقوم بذلك..!! ولو بمجرد التفكير بإلحاق الأذى ظلما وعدوانا بحق معتنقي الدين اليهودي، فهم أهل ملّة مثلهم مثل كل أهل الملل الأخرى..!! ولكن الصهاينة هم بعيدون عن دين نبي الله موسى مثلهم مثل التكفيريون من أهل الإسلام، فكذلك هم بعيدون عن دين نبي الله محمد!!.. مع كامل الأسف أن فرنسا ترزح تحت رحمة هؤلاء الصهاينة الذين تمنحهم جنسيتها رغم أنهم شرذمة من مجرمي الحرب وسفّاحون نفذوا مجازر بشعة في حق الإنسانية، ولا تزال ملفاتهم عالقة في محكمة الجنايات الدولية ومحاكم عدة دول ممن بها قضاء نزيه!!".

نهض جليل من مضجعه بعد أن سمع صوت طقطقة القفل الأوتوماتيكي لباب المحتجز.. مرّت ساعتان بسرعة ما بين اليقظة والحلم.. دخل أحد الضباط يحمل علبة كارتون

بها شطيرة بيتزا وكيسا ورقيا به بطاطس مقلي وعبوة مشروب غازي.. وضع ما بيديه فوق الطاولة وأخبره أنها وجبة الغداء وبعد نصف ساعة ستبدأ حصة التحقيق...

****

****

قاعة التحقيق، ما بعد الزوال...

أَنَا اللّي كُنتْ رْزِيــنْ وخَفِيت بَعْد الرْزانَة
مْشيِت لِلرمَادْ عَامَين نْــدُوَّر فِيه السْخَانَة
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

دخل الضابط مصحوبا بجليل إلى حجرة واسعة بها ثلاثة أشخاص بهندام مدني، يجلسون إلى طاولة مستطيلة الشكل.. طلب أحد المحققين من جليل الجلوس بعد أن انصرف الضابط الذي لن يبتعد حتما عن باب الحجرة تحسبا لأي تدخل فوري.. عرّف المتحدث بنفسه وبصفته وعرّف كذلك بالشخص الثاني الذي يجلس إلى جانبه وبصفته مراقب التحقيق، لم يسبق لجليل أن قرأ أو سمع عن طبيعة وظيفة كهذه، ولكن غلب على ظنّه أنه محام نصّبه وكيل الجمهورية أو المحكمة ليقدم المؤازرة القضائية للمستنطق!! أما الثالث فتبين له من بعد أنه محرر...

شرع التحقيق بعدها فورا.. وجّه المحقق السؤال الروتيني الذي يفتتح به دائما محضر الأقوال:

- ما اسمك وما عمرك وأية جنسية تحمل؟

أجاب جليل:

- عبد الجليل صحراوي، واحد وثلاثون سنة، مغربي.

المحقق:

- هل تعرف لماذا أنت هنا؟

جليل:

- لا إطلاقا سيدي..!! أنا لم اقترف ذنبا أبدا..!!

سكت المحقّق قليلا وبدأ يفتش في أوراق أو تقارير مرتبة بملف أمامه ثم قال له:

- أنت متهم بعدة جنح...

سكت مرة ثانية وسأله:

- متى حصلت على الجنسية الفرنسية؟

جليل:

- ليس لدي جنسية فرنسية..!! لدي بطاقة إقامة سيدي..!!

المحقق:

- كيف حصلت عليها؟

جليل:

- حصلت عليها من خلال التجمع العائلي...

المحقق:

- هل يعيش كل أفراد عائلتك بفرنسا؟

جليل:

- نعم..!!

المحقق:

- هل متأكد أنك مغربي؟

جليل:

- أكيد سيدي أنا مغربي، بالتحديد من جنوب المغرب..

المحقق:

- لدينا معلومات أنك شخص مبحوث عنه وتتنكر في هوية صاحب البطاقة التي معك...

جليل:

-لا..!! لا..!! سيدي أنت مخطئ!! أنا هو صاحب هذه الهوِيَّة!!

سكت المحقق هنيهة ثم أخبره بصوت مرتفع قليلا:

- يجب أن تتعاون معنا في التحقيق ولا داعي للإنكار..!! أنت متنكر في هوية عبد الجليل صحراوي وهو مغربي، أنت لست هذا الشخص..!!

ثم أضاف المحقق:

- أنت ياسر عمري من عرب الثمانية والأربعون كنت تحمل الجنسية الإسرائيلية وتم إسقاطها عنك بعد إدانتك في جنايات متعددة.. دخلت إلى التراب الفرنسي عبر تونس وتعيش منذ ذلك الوقت هنا بفرنسا..!! دخلت بصفة غير قانونية، والقانون الفرنسي يعاقب على هذا الأمر.. أنت مجند في الجناح العسكري لحماس وكنت تتنقل بين سوريا ولبنان لتلقي التدريب العسكري في معسكرات حزب الله.. وهذه كلها منظمات إرهابية حسب القانون الدولي الذي ننصاع له في فرنسا وفي الدول الديمقراطية..!!

سكت المحقّق قليلا وتنفس الصعداء بعد أن سرد التقرير الاستخباراتي بدون توقف ثم سأله بهدوء:

- ما علاقتك بحزب الله وحماس؟

لم يصدق جليل أذنيه من هول ما سمع من تهم خطيرة وسيناريو مفبرك، أجاب بتوتر:

- هذا هراء سيدي!! ليس صحيحا ما قلت!! أكيد أنكم أخطأتم الشخص الذي تبحثون عنه..!! أنا لست هذا الشخص الذي ذكرت!! أنا اسمي كما أخبرتك منذ البداية عبد الجليل صحراوي مغربي أبا عن جد.!! يمكنكم أن تتصلوا بعائلتي، التي تعيش بجنوب فرنسا ليثبتوا لكم ذلك..!! كما أنه لديكم وسائل عدة للتحقق من هذا الأمر..!!

كان المحقّق يترك المجال لجليل كي يتحدث دون مقاطعته عقب كل سؤال، ولا يسأله السؤال اللاحق إلا بعد أن يسكت عن الكلام.. أخبره المحقّق إن أراد أن يدخن سيجارة فلا مانع من ذلك. أجابه جليل أنه لا رغبة له بالتدخين الآن. أعاد عليه السؤال بصيغة أخرى:

- هل تعرف حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله أو التقيت به سابقا؟

أجاب جليل:

- لا أبدا..!! أنا لم أسافر قط إلى لبنان ولا إلى أية دولة عربية أخرى..!! فكيف ألتقي حسن نصر الله..؟؟ أعرفه فقط من خلال التلفزيون وعبر الفضائيات كجميع الناس..!!

يحاول المحقّق الضغط على جليل بسيل من الأسئلة المُعدّة مسبقا في الملف أمامه لكي يعترف بما نسب إليه، محاولا إيهامه أنه ياسر عمري وأنه كان معروفا لدى الجهاز الاستخباراتي (DGSE) منذ وصوله بعد مدة إلى فرنسا من مخبئه الأول بإحدى دول شمال إفريقيا، ولا سبيل أمامه للإنكار الآن، ووعده كذلك أنه لن يسلمه إلى أي دولة خارجية لمحاكمته وسيكتفي القضاء الفرنسي بمحاكمته بتهمة التزوير وانتحال هوية الغير ودخول التراب الفرنسي بطريقة غير شرعية وهي تهم غير مصنفة في خانة الجنايات التي تدين مقترفها بعقوبات ثقيلة...

يسعل المحقّق ليزيح الحشرجة التي انتابت حباله الصوتية ثم سأله مجددا بنبرة هادئة تنبعث منها إشارة طمئنة وهو يدير رزمة الأوراق داخل الملف:

- سيد ياسر عمري!! أنت لم تقترف جرما لحد الآن بفرنسا.. والقانون الفرنسي لا يعاقب على النوايا.. ولكن على الأفعال الثابتة أو حالة التلبس..!! ووضعيتك لا تندرج ضمن أيّ

منها..!! رجاء كن متعاونا معنا..!! هل أرسلتك حماس أو حزب الله للإعداد لعملية انتقامية إرهابية ضد فرنسا بعد أن صنّفت الحكومة الفرنسية هاتين المنظمتين في خانة الإرهاب الدولي؟

يتحرّك جليل على الكرسي وقد عدَّل من جلسته وفكّ أصابعه المتشابكة ثم أجاب:

- يا إلهي..!! كلاّ هذا غير صحيح..!! أنا لست ياسر عمري ولست مجندا لصالح أيّة جهة أو منظمة.. لا حماس ولا حزب الله ولا (FLNC)، ولا أنوي إلحاق الأذى بفرنسا، فنحن نعيش على أرضها ونستفيد من كل الحقوق كما نؤدي جميع الواجبات..!! أنا لست ناكرا للمعروف..!! أنا مواطن أشتغل في فرنسا كباقي أفراد أسرتي وندفع الضرائب للخزينة العامة ونحترم قانون فرنسا ولا يمكنني حتى مجرد التفكير في ما تتهمني به سيدي..!! معذرة.. هذا هراء!! هذا كذب!! أنت الآن تنتهك القانون الذي تدّعي أنك تمثله أو لست أدري ماذا تمثل..؟

حاول المحقّق أن يهدِّئ من التوتر الذي بدأ يظهر على صوت جليل وطلب منه:

- اهدأ..bon home..!! ودعنا نعرض عليك التهم التي أنت بصددها هنا..!! لك كامل الحريّة أن تجيب عمّا تريد وتُعرض عما تريد..!! هذا السيد المراقب يعاين أخذ أقوالك.. نحن نطبق مقتضيات القانون الذي يسود على الجميع في فرنسا...

المحقق:

- منذ متى وأنت هنا بباريس؟

جليل:

- منذ خمسة أيام فقط...

المحقق:

- أتيت في مهمة خاطفة لتنفيذ عملية ضد مدرسة يهودية هنا ومصالح أخرى لدول صديقة لفرنسا؟ هل لديك متعاونون آخرون؟ وفي أي مدن؟ وهل سيقدمون إلى باريس؟ كم عددهم؟ وما هي أنواع الأسلحة والوسائل التي تعتزمون التنفيذ بواسطتها العمليات الهجومية؟ وهل هذه الأسلحة مخزنة بفرنسا أم أنها ستأتي من دول مجاورة في الاتحاد الأوروبي؟ أجب..!!

جليل:

- اسمح لي سيدي أن أقول لك؛ أنت أحمق..!! أكيد هذا كلام شخص أحمق!! أنت محتال، أنت عنصري وتكره العرب، أنت صهيوني مندس في المؤسسة الفرنسية لتصفية حقد دفين ضد كل عربي.. ما قولك..؟ أجب..!!

تعمّد المحقّق صمتًا مفتعلا، مفسحا المجال لجليل الذي بدا على حركات يديه ونبرة صوته حنقا وانفعالا شديدين.. بدأ على إثرهما يُكيل كذلك بدوره اتهامات مفترضة لهذا المحقّق، محاولا أن يردّ كل تلك التهم عنه ويدافع عن نفسه بنفس أسلوب مواجهة المحقّق له.. نظر المحقق في اعتداد بالنفس يمينا ويسارا إلى من يجلسا بجانبيه؛ وكأنه يلقي إليهما إشارة بأنّه وصل بضغطه على المتهم إلى نقطة الانهيار التي سيشرع بعدها المتهم في الاستسلام والاعتراف بما نسب إليه من تهم..!!

ظلّ المحقّق صامتا بشكل مثير لانفعال مستنطقه لكي يلفظ ما بجعبته من كلام وأقوال، باحثا ربما عن عثرات وزلّات لسان يسقط فيها جليل من شأنها أن تكشف عن حقيقة مخفيّة في اللاشعور..!! وهذا أسلوب معتمد في أبجديات التحقيق النفسي البوليسي يسمي 'تقنية التحقيق الافتراضي'...

توقّف جليل عن الكلام وقد بدا الانفعال الشديد واضحا على صوته، وأصبحت لغته الفرنسية تسوء أكثر فأكثر فلم يعد يستطيع استعمال جمل صحيحة للتعبير بدّقة عن رأيه والدفاع بوضوح عن نفسه ضد تهم يلزمها حرص كبير في انتقاء الألفاظ والعبارات، لأن كل كلمة من أقواله وكلامه ستنقل ويسجل كما أدلى بها وربما قد تترك للمحرّر تأويل كلامه وقد يدسّ به ما لم يقُله أو يقصده...

أجابه المحقق بنبرة هادئة وهو يقلب الأوراق بالملف أمامه:

- أيها السيد..!! أنا لست عنصريا..!! وليس لدي مواقف مغرضة ضد أي أحد..!!. أنا قاضٍ موكول إليّ إجراء هذا التحقيق والسيد الذي إلى جانبي هو كذلك قاض بهيئة عليا ولا يمكن أن أكون كما وصفتني بتاتا..!!

سكت المحقّق عن الكلام مجدّدا واستدار نحو المراقب، مفسحا له المجال لكي يضيف ملاحظاته إلى ما قاله.. تنحنح المراقب ثم أخبر جليل مؤكدا ما قاله زميله:

- سيد صحراوي..!! جميع هذه المعلومات التي استمعت إليها الآن.. هي واردة على مصالح الاستعلامات الفرنسية (DGSE) من مصالح الاستعلامات بمكان قدومك إلى فرنسا!!

ضحك جليل باستهزاء، ثم أجاب:

- هذا افتراء..!! هذا كذب..!! لماذا لم يعتقلني جهاز الأمن ذاك في ذلك المكان إذن..؟؟ إذا كُنتُ حقا كما يصفني التقرير الذي بين أيديكما..؟ لقد كنت قبل سنة فقط في المغرب وأنا عازم زيارة العائلة خلال الشهرين أو الثلاثة أشهر القادمة لأنني لا أخشى شيئا..!!

****

****

بعد ساعتين...

وأنَا راقْـدْ في مْـنـامِي اهْل الله وقْفُوا عْلِيَّا
قالُوا لِي قُم يا النَّايْـم تَذْكُر الله الـدَايْــم
اذكُر الله وأنْتَ مَاشِي لاَ تْـلْـهِـيك مْسالَة
تَحْيي القَلْب الراشِي بـِذكـْرك الـجلالـة
أقوال منسوبة: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

انبعث من على المنضدة، صوت هزّاز هاتفه النقال متبوعا برنين متصاعد دون توقف.. استيقظ جليل من النوم مفزوعا يتصبب جبينه من العرق من هذا الكابوس المرعب الذي رآه في الحلم.. نهض من على السرير وخلع حذاءه وهو يتمتم: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمان الرحيم.. اللهم جعله خيرا..!!". نفث عن يمينه ويساره وهو ينظر في زوايا الغرفة التي طمستها عتمة الليل إلا من إضاءة خافتة انعكست على الجدران اقتحمت المكان عبر النافذة من مصابيح الحديقة...

نظر إلى حقيبة ملابسه التي بدت له كشبح ممدد أسفل حافة السرير، ما تزال بمكانها منذ أن وضعها قبل

خروجه إلى المتجر.. غير بعيد عنها لاحت له أكياس المقتنيات التي أتى بها جاثية فوق المنضدة، وكأنّها نوارس استسلمت لسكون الليل في مرفأ مهجور...

انتابه إحساس غريب وتوجّس من هذه الغرفة التي ظنّ أن أرواحا شريرة تستحوذ عليها، لهذا تلبّسته هواجس وكوابيس منذ الوهلة الأولى بهذا المكان؛ بمجرد أن غفا قليلا ليستريح من إرهاق السفر وجولته القصيرة ببرونوا.. عسى أن يتوقّف الأمر في هذا الحد ولا تتحول ليلته هذه ولياليه اللاحقة إلى سلسلة من أفلام رعب هوليودية مع قبيلة جن برونوا.. ابتسم محاولا أن يرفع من معنوياته، فلابد أن يستعدّ لتتمة حلقات السلسلة الدرامية لاحقا، وإلاّ فيجب عليه أن يطلب من صاحب النزل أن يستبدل هذه الغرفة بأخرى في صباح اليوم الموالي...

قام من السرير ثم أشعل النور في الغرفة.. اتّجه صوب المنضدة؛ ما أن مدّ يده لالتقاط الهاتف حتى أخذ يرن مجدّدا.. كانت العائلة تتصل لتطمئن على وصوله إلى باريس.. أنهى المكالمة على عجل وهو يضحك هازئا ويغمغم: "أش من لا باس..!! اليوم شفنا اللي عمرنا ما شفناه في اليقظة

والحلم..!! الله يرحم الاولين 'باينة الفضيلة من شمس العصر' والله ما كذبوا..!!"...

جلس إلى المنضدة وفتح الأكياس وأخرج جبنا ومورتديلا وخبزا وعبوة مشروب غازي.. نسى أن يشتري سكين مطبخ، قام وفتح خزانة خلف الباب ليلقي نظرة عسى أن يجد سكينا أو آنية مطبخ منسية بها.. لم يجد فيها شيئا، ولكن انبعثت منها رائحة نفاثة..!! لابد أن أحد الأفارقة كان يسكن بهذه الغرفة من قبل، وكان يرتب بهذه الخزانة ملابسه، فهذه الرائحة هي بنفس عبق الدماء الإفريقية..!!

****

****

باريس، مصادفة الشياطين والملائكة...

جَحْشْ البَغْلْ لاَ تَغْنْجُه وبالزِيتْ تَدْهَن جْلُودُه
الـصَّـكْ والـعَـضْ فِـيـه هَذِيك طَـبايْع جْدُودُه
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

ذات مرة.. بعد عودته من مركز التكوين مساء، دخل كعادته من البوابة الخلفية للفيلا التي حوَّلها السيد غوديفيك إلى مطعم بالطابق الأرضي وغرف للإيجار في الطابق العلوي بل وقد اقتطع من حديقة الفيلا وأنشأ بها غرفا إضافية ليؤجّرها، لأن منطقة باريس أو 'إيل دو فرنس' تعرف اكتظاظا شديدا مقارنة بمناطق أخرى في فرنسا؛ والسبب يرجع إلى أنها مدينة دولية يفِد عليها مهاجري العالم أجمع، ولا شك أن من عاش بهذه المدينة وتجول في شوارعها وتنقل في وسائل النقل العمومية بها يلاحظ هذا الأمر، حيث يشاهد المرء مئات الأعراق البشرية ويسمع مئات اللهجات واللغات العالمية من حوله...

لاحظ جليل أن ثلاث أو أربع نساء إفريقيات ممن يقطن بالغرف المتواجدة بالحديقة واقفات متحلّقات في حلقة يتحدثن إلى بعضهن البعض بالقرب من الممر الذي يصعد منه إلى غرفته بالطابق العلوي.. ما أن اقترب منهن وألقى عليهن التحية حتى قفزن من الممر بسرعة في حركة متوجّسة دون أن يردُدن التحية، وكأنهن يبعثن إليه برسالة مفادها أنه شخص مشبوه..!!

سمع إحداهن، وهو صاعد الدرج تنمُّ لجاراتها بصوت مسموع: "إنه صحفي لا تقتربن منه لا تسمحن له بالحديث إليكن..". فتح الباب الخارجي ودخل غير آبه بما سمع والتمس لهن العذر كما فعل مع من سبقهن، فهؤلاء الجحافل من الآدميين رحّلوا بداوة أفريقيا معهم إلى باريس وظلوا أفياء لها، ينعمون في جهل في بلد علم!!. قد يكون هناك من أبلغهن شيئا ما أو شاهدن تفتيشا سرّيا للمكان في غيابه أو غيره من التدخلات الأمنية..؟؟

انتهت الدورة التدريبية وأقيمت بمعهد التكوين حفلة ختام بسيطة مساء آخر يوم من برنامج التداريب.. سُلّمت خلالها شواهد المشاركة، ودوّن المتدربون كلماتهم وانطباعاتهم عن الظروف التي مرّت بها الدورة التكوينية في

سجيل المركز.. التقط المتدربون صورا جماعية وتبادلوا أرقام الهواتف والبريد الإلكتروني فيما بينهم؛ وذهب الكل إلى حال سبيله.. عاد جليل إلى غرفته وقرّر أن يبدأ جولته السياحية في باريس في صباح الغد، لأنه كان منشغلا خلال الأسبوع بأكمله في التداريب التي لا تنتهي إلا في الرابعة مساء، فلا يتسع له الوقت سوى لاحتساء فنجان قهوة في مكان قريب على عجل ويعود إلى الغرفة لأخذ قسطا من الراحة...

بعد أن وصل إلى محطة القطار الرئيسية 'شارل دوغول' والتي تنطلق منها في قبو تحت أرضي خطوط الميترو في كل الاتجاهات التي تخترق العاصمة باريس.. أخذ ينظر إلى لواحات خرائط خطوط السكك عبر مترو الأنفاق المثبتة على الأرصفة وهو يسجل في مذكّرته أرقام القطارات وأسماء الأحياء التي تساعده في البحث عندما يخرج من محطة الميترو التي سيتوقف بها للصعود إلى وجهته..

حدّد أولوياته في زيارة المعالم الشهيرة بالعاصمة، وبعدها قرر أن يبدأ بوجهة جادة "الشان إليزيه" ويحقق حلما قديما بالتجوال بأشهر شارع في باريس، ويرى عن قرب قوس النصر والمقاهي والمطاعم التي جلس بها مشاهير العالم من الفنانين والكتاب والصحفيين وحتى رؤساء الدول وكبار

الشخصيات السياسية العالمية؛ كما قرأ في مذكراتهم والروايات والسير الذاتية المليئة بالأحداث بهذه الأماكن، كما كتب عنها أدباء وسينمائيون...

كان المشهد عظيما عندما انفتحت عيناه على قوس النصر الذي يتوسط ملتقى طرق واسع، تتفرع منه في كل الاتجاهات شوارع واسعة متراصة ببنايات ذات طابع معماري فرنسي كلاسيكي.. تذكّر وهو وسط هذا الازدحام البشري في هذا الموقع، بعد أن لاحظ عشرات الآلاف من السياح من مختلف بقاع الدنيا تحوم وتلتقط الصور التذكارية حول هذه المأثرة التاريخية التي شيّدت بطلب من نابوليون بونابرت تعبيرا عن أمجاد الأمة الفرنسية...

تذكّر في هذه اللحظات اندهاشه الكبير أول يوم انفتحت عيناه على مآثر المدينة الإسماعيلية بمكناس والقصور والمرافق السلطانية بمراكش الحمراء الضاربة في التاريخ، وتساءل عن السبب الذي جعل مأثرة تاريخية كقوس النصر تعجُّ بحشود غفيرة من السياح الأجانب، عكس مآثرنا الحضارية العريقة بالمغرب التي تحتضر ولا تجد من يثمّن ذاكرتها ويُسوِّق منتوجها السياحي الذي يضاهي ما يوجد بأعرق حضارات الدول الأخرى..!!

أنهى تجواله بـ "الشان إليزيه".. غير بعيد، سأل أحد المستخدمين في النظافة، من أصول إفريقية أو من مستعمرات ما وراء البحار، عن نقطة عبور حافلة النقل العمومي المتجهة إلى 'برج إيفل'.. أخبره هذا الشخص عن محطة الحافلة على عجل معرضا عن الحديث معه.. لاحظ جليل أن تلك الجالية الإفريقية أو المجنّسين من بلدان فرنسا ما وراء البحار، يظهرون علنا توجّسهم من الحديث إلى كل من له سحنة شخص عربي..!!

تحرّك في نفسه كبرياء فقرّر بعدها ألا يتحدث ثانية مع هذه الفصيلة، متسائلا مع نفسه:

".. مالنا طليين وجهنا بالحموم..؟ الله يلعن المصنان اللي ولدك..!! استغفر الله العظيم..!! ما هذا يا جلول..؟؟ لا تتسرّع في إصدار أحكامك فقد يكون وراء ردود أفعالهم هذه أسباب معينة..!! فباريس منطقة دولية ولابد من أن تنهج الدولة زرع هذه التفرقة بين الجاليات، خاصة من الدول الإفريقية وإلا فقد تتوقع الكوارث من هذه الحشود التي جاءت من الغابات والجبال والأحراش فجأة، ووجدوا أنفسهم بين عشية وضحاها في بلد ألقى بالسوط و'الزروطة' منذ أكثر من قرن ولم يعد يستعملها مع مواطنيه..!!"

توجّه إلى محطة الحافلة ثم انتظر قدومها قليلا، ركب بعد أن أكّد له السائق أن خطّه يمر قريبا من البرج، ثم يلزمه عبور جسرا مشيا على الأقدام ليصل إلى الموقع.. حجز تذكرته بعد أن وضع قطعة نقدية في الجهاز، التفت بعدها إلى أحد الأشخاص يصعد خلفه من نفس المحطة..

كان هذا الشخص كذلك من المجنسين الأفارقة أو من بلدان الكاريبي، كان يرتدي معطافا يصل إلى ركبتيه. أدرك جليل أنه مخبر يتعقبه في جولته..!!.. ما أن همّ جليل بالجلوس على مقعد مقابل لمقعد امرأة كانت جالسة وإلى جانبها عربة رضيع حتى أزاحت عربة طفلها المتوقفة بمحاذاتها بحركة مرعوبة؛ وقد أكدَّت له ذلك باللفظ الصريح وبصوت سمعه كل من كان بالحافلة التي لم تكن مكتظة جدا:

- عربي متسخ.. تتعقبه الشرطة..!!

سمع ذلك المخبر 'العنطيز' ما تلفّظت به تلك المرأة، وقد ازداد انتشاء بشتيمتها لكي يظهر ربما للرّكاب أنه مخبر ويقوم بمهامه للحفاظ على سلامتهم.. سلك الممر في اتجاه السائق وهو 'يتعنطز' بكل بلادة وغباء، وقف بجانب السائق وقال له شيئا بصوت منخفض.. ثار دم ساخنا في أوداج جليل

وشعر بغضب شديد من هذه المرأة الدنيئة التي أساءت الأدب وألقت بشتيمة يعاقب عليها القانون الفرنسي في حق مواطن وفي مكان عام، وشهد على شتيمتها كل الركاب والسائق كذلك، ولم يوبّخها هذا التّافه الذي أوهم من بالحافلة بحركاته البليدة أنه مخبر سري؛ إن لم يكن 'مافيوزي' مرتزق مستخدم من جهة ما لتنفيذ اعتداء أو ربما جريمة، فباريس مليئة بالمافيا وعشرات الشبكات التي تنشط في الإتجار بالمخدرات والممنوعات والأسلحة وكل شيء متوقّع جدا في مثل هذه المدن المتغوِّلة.. من يدري..؟؟

اقترب جليل من البرج واكتفى بالنظر إليه ومشاهدته عن بعد فقط رغم أنه كان ينوي أن يصعد إلى البرج ليلقي نظرة من الأعلى على بلاد جان جاك روسو وفولتير وموليير وفلوبير وهيكو وأحفادهم رولاند بارت وجيل دولوز وروجيه غارودي وعلى وجه التحديد رجل الجمهورية الخامسة العظيم جاك شيراك، الملقب بصديق العرب والمعروف بانتصاره ودفاعه عن القضية الفلسطينية العادلة وغيرها من القضايا السياسية العربية؛ كيف لا؟ وهو الذي نأى بفرنسا بها عن أكبر خرق للقانون في القرن الواحد والعشرين عند غزو العراق سنة 2003 الذي قادته أمريكا وجرّت إليه دولا كبيرة بأوروبا ما عدا فرنسا التي صوتت بالرفض ضد ذلك القرار في

مجلس الأمن والتزمت بموقفها المعارض للغزو الأمريكي للعراق...

شعر جليل بعد الذي حدث معه بالحافلة.. أنه لا مجال الآن مداراة المسألة، فالأمر جد خطير ما دامت المراقبة لصيقة لهذا الحد، وأن جهاز الاستخبارات ومراقبة وتعقب أفراد الشرطة السرّية في أوج ذروته.. فالآن لم يعد هناك ما يبرر التغاضي عن هذه الحقيقة.. بدأ يفكر جليل وهو واقف على الجسر المقابل لبرج إيفل:

"..آه!..! آه..!! أنت مطارد يا جلّول بجيش من المخبرين ولن يدَعُوك تنعم بسياحتك في باريس، بل وسيضايقونك قصد الرحيل من المركز.. هناك من يحرّك هذا الملف بكل حنكة وخبث.. آخ..!! آخ..!! لقد امتدّت إليك أيادي الشّر والغدر دون أن تقترف أي ذنب.. يا إلهي!! هل هكذا تصير الأمور؟ أنا لم أقترف خطأ أبدا في حق أي إنسان منذ أن بلغت رشدي وبدأت أميز بين الخطأ والصواب، بل كنت أتنازل عن حقي لأربح راحة بالي، وإذا حزّت بنفسي مظلمة لحقت بي، كنت أكتفي فقط بالدعاء على ظالمي في صمت كما تفعل النساء..!! يا للمصيبة..!! ويا للعاقبة السيئة..!! أنت الآن شخص مشبوه بالنسبة إلى جهاز الأمن

(DGSE) وفي وضع تحت المراقبة اللّصيقة المشدّدة هنا بباريس، وستبقى لمدة طويلة وربما إلى الأبد، لأن أثر هذا الملف المفبرك لن يختفي أبدا من سجلات مصالح الاستخبارات، ولن تنعم باستقرار اجتماعي واقتصادي بفرنسا بعد هذا أبدا..!! لابد أن تتوقع الكوارث منهم يا بَّاجلول؛ فحظك التّعس صادفك في زمن سياسي نكص بفرنسا قرنا من الزمن إلى الوراء...

****

****

محطة شارل دوغول، وداعا باريس...

أنَا اللّي رْقِيتْ فِيَّ رْقُوبَة وقَعْدْت مَثلْ الرْصَاصْ نذُوبْ
مَنْ لاَ يَقْرا لِلزْمانْ عْقُوبَة يـجِي عـلى رَاسُـه مَـكبـوب
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

كاميرات المراقبة تتعقب جليل منذ أن وصل إلى محطة القطار 'شارل دوغول'.. لم يستطع المرور بالحواجز الأوتوماتكية التي تفصل محطة ميترو الأنفاق في القبو تحت أرضي عن محطة القطار في الأعلى.. حاول مرارا بعد تمرير التذكرة في الماسح الكهربائي للحواجز ولكنها تفتح وتقفل بسرعة بشكل غير طبيعي، وقد لاحظ ذلك من كان وراءه من الركاب الذين بدأوا ينتقلون إلى حواجز أخرى تفتح لهم بشكل طبيعي...

حاول في ثلاث حواجز أخرى، فأدرك أن هذه الحواجز هي تحت تحكم بشري، لأنها في كل مرّة تُغلق بسرعة وبحركة صادمة كادت تهشم أصابعه عدة مرّات لو لم ينتبه جيدا إلى نفسه.. بعد يأسه من المرور بشكل عادي حمل الحقيبة

وقفز بها على الحاجز بعد أن خفّت الحركة بجانبيه.. مرّ بهذه الطريقة رغم ما شعر به من حرج من هذا التصرف الذي لا ينقص من قيمته كفرد فقط، ولكن يلحق كذلك بكل العرب الذين يقاسون مرارة العنصرية والتمييز من طرف الجميع هنا...

ستنطلق رحلة العودة إلى مرسيليا بعد أقل من ساعة من الآن. جرَّ جليل حقيبته وجلس على المقاعد الجانبية للرصيف الذي سيتوقف به القطار.. لاحظ أن المحطة بها عناصر ببدلات عسكرية يحملون بنادق كلاشينكوف الحربية ويمرون بمحاذاته وفي المحطة ذهابا وإيّابا.. بعدها بدأت عناصر المخبرين السرّيين يتناوبون على الجلوس بمحاذاته وكانوا من فئة عمرية تفوق سن الستين بل منهم من تجاوز سن التقاعد ولكن الجهاز لم يستغن عنهم ربما لأنهم راكموا تجارب طويلة في هذه المهنة...

لم ينزعج من تصرفاتهم وقد حافظ على هدوئه وتصالحه الداخلي مع نفسه و فوّض أمره إلى الله وينتظر تطور أطوار المطاردة.. لم يأبه لمن يجلس أو يقوم من حوله مادام لم يتحدث إليه أي أحد.. بدأ يفكر من جديد:

".. آهٍ..آهٍ..!! هذا أمر عجيب وغريب..!! أتمنى أن ينحصر الأمر في شخصي وألاَّ يمتد إلى العائلة إلى الوالد وإلى إخوتي..؟؟ وا حسرتاه ..!! أكيد سيصل إليهم صدى ما أنا عليه الآن، هذا إلَّم يكونوا هم أيضا تحت المراقبة منذ وصولي والإقامة معهم بنفس السكن..؟؟ يا إلهي بأي ذنب أوخذ ومعي العائلة..؟ هل قام أحدنا بجريمة أو اقترف خطيئة تعاقبنا السماء بها الآن؟؟ من المسؤول عمّا نحن متورطون فيه الآن..؟ لابد أن هناك سببا ما..؟؟ ماذا عن ذلك الشخص الذي همس بمقربة من أذني وقال لي: 'إن كنت تبحث عن جو أكثر حرية وتقبلا من الحكومات فعليك بالذهاب إلى سويسرا أو بريطانيا..؟؟'.. هل مثل هذا الكلام يلقى هكذا بدون سبب..؟ والله إنني لم أعد أدري من أن أكون!! وأخشى أن أصير فعلا ما اتهمني به ذلك المحقق في ذلك الكابوس المرعب؛ وأنني شخص آخر ولست 'جلول ولد الصحراوي'.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!! ما هذا الكلام؟.. أنت لحد الآن حر طليق..!! لم يتم توقيفك أو استدعاؤك أو غيره..!! وهؤلاء من حقهم حماية وطنهم ولو بخرق القانون..!! أنت مقيم فقط في هذه البلاد وإن لم يرق لك الأمر فلتنصرف حيث تشاء..!! ولكن لماذا يتبجّحون بالقانون وحقوق الإنسان ويعطون الدروس للآخرين مادام هم كذلك شرذمة

بوليس أمن الدولة 'زيّهم زي الدول المتخلفة' كما وصفهم الكوميدي المصري عادل إمام في أحد أعماله الدرامية..؟؟.. الآن فهمت جيدا ما حكاه الصحفي السوداني سامي الحاج في برنامج تلفزيوني عن تجربة اعتقاله من طرف وكالة الاستخبارات الأمريكية (CIA) بعد غزوها أفغانستان، وكان وقتها يغطي وقائع الغزو بهذه المنطقة الملتهبة، وقد اتّهمته بالتعاون وقتذاك مع منظمة القاعدة بعد أن أجرى مقابلة صحفية مباشرة مع زعيمها أسامة بن لادن ونقلته شاشات الفضائيات العالمية.. بعدها دبّروا له فخا استخبراتيا فذهبوا به إلى معتقل غوانتنامو.. سرد تفاصيل كثيرة عن استخدام (CIA) فرق وعناصر من محقّقين من جنسيات عربية مختلفة أتوا بهم لممارسة التعذيب على العرب المعتقلين.. فدول الغرب تصير أكثر همجية من الدول المتخلفة عندما يقف أحد ما ضد مصالحها.. لقد ذرفت دموعا غزيرة عندما كنت أشاهد تلك الحلقة وعن أساليب التحقيق التي حكها بكل جرأة وصدق.. بعدها علمت أن ديمقراطية أمريكا مجرد كذبة وأمريكيو اليوم هم تماما أمريكيو الأمس الذين اختطفوا الأفارقة من بيئتهم واستعبدوهم في مستعمراتهم كما أبادوا شعب الهنود الحمر من أجل تأسيس دولة أمريكا الغاصبة للأرض والإنسان..!!..آه!! آه!! يا جلّول لو استدعى الأمر أن

تأتي فرنسا بمخبرين من أبناء جلدتك ليغتصبوك لما تردّدوا في ذلك للحظة واحدة وذلك تحت ذريعة الحفاظ على الأمن القومي لفرنسا ومحاربة الإرهاب، فهذه الدول تربطها شبكات علاقات معقدة تختلط فيها المصالح الاقتصادية للدول والامتيازات الفردية وقِس على ذلك كل ما يمكن أن يخطر ببالك..!!"

استفاق جليل من غفوة تفكيره العميق بعد أن صَدَر بلاغا في مكبرات الصوت بالمحطة منبها الركاب المتوجّهين في رحلة مرسيليا إلى التأهب لامتطاء القاطرات بعد أن دخل (TGV) توّا.. قام من المقعد ثم جرّ حقيبته، فصعد في إحدى القاطرات دون أن يكترث بمن حوله من أولئك الذين كانوا تناوبون على الجلوس والقيام بمقربة منه...

وضع حقيبته في مكان الأمتعة وصعد أحدهم خلفه وهو يتحدث في هاتفه. وقف هذا الشخص بمقربة من جليل في مكان الأمتعة بالقرب من باب القاطرة، واستمر يتحدث مع المتصل به بصوت مسموع لجليل: "لا..!! لا..!! أعذرني لا يمكن أن نتعقب الناس بهذه الطريقة!!"...

فهم جليل أن هذا الشخص يقصده تماما بكلامه لأنه كان ينظر إليه وهو يتحدث، ولم تكن في نظراته عدوانية أو

توجّس أو شك.. بدا من خلال كلام هذا المخبر أو المسؤول الأمني أنه متحفظ ومعترض على هذه الملاحقة غير القانونية ربما من طرف الجهاز الأمني، ولهذا فقد عبّر عن موقفه هذا للمتصل به وأحبّ أن ينقله إلى جليل في اللحظات الأخيرة وهو على متن القطار في رحلة العودة إلى مرسيليا...

ذهب جليل إلى مقعده، تاركا إيّاه في مقصورة الأمتعة ولكن كان يستدير بين الفينة والأخرى لكي يراقبه، فلابد أن يأخذ منه حذره رغم ما سمع منه ورغم نظراته المسالمة، إلا أن الوضع يتطلب يقظة واحتراسا كبيرين، فقد يأخذ الحقيبة أو يحشو بداخلها شيئا ما من الممنوعات لتوريطه أو غير ذلك..!! تملّكته وسوسة فقام من مقعده مرة أخرى لمراقبة الحقيبة، أبصرها في مكانها على الرف، لكن ذلك الشخص اختفى من المقصورة، فربما نزل أو دخل في المقطورة المقابلة...

****

****

مرسيليا، مطار بروفانس 2014...

مَثْلْتْ رُوحِي مَثْل الحَمَّام مَبْنْيِ عَلى صَـهْدْ نـاـــرُه
مَنْ فُوقْ مَا بَايْن دْخَــانْ ومَنْ تَحْتْ طَابْ أحْجَارُه
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

أمام حاجز الجمارك بالمطار.. يقف جليل في طابور طويل من المسافرين.. كانت فترة الربيع وقد تزامنت مع عطلة مدرسية في فرنسا وكثير من السواح الذين يتصيّدون الوجهات السياحية المغريّة وغير المكلّفة، يغتنمون زيارة تركيا لقضاء العطلة.. لم يكن جليل ذاهبا للسّياحة في تركيا ولكنه كان مبعوثا في مهمة صحفية لإحدى القنوات الفضائية الإخبارية، سيقضي فترة قصيرة بإسطنبول ثم سيتجه إلى جنوب البلاد للتغطية الصحفية الميدانية في مخيمات اللاجئين المنتشرة على الحدود التركية السورية...

جلس في مقعده وبعدها مباشرة أصدرت المضيفة رسالتها الصوتية في الطائرة: "سيدتي سادتي الشركة وطاقم

الطائرة يتمنى لكم رحلة هنيئة. المرجو منكم تثبيت أحزمة السلامة، ستقلع الطائرة فورا.."...

أقلعت الطائرة.. انشغل كل من كان على متنها في تصفح شاشات هواتفهم الذكية.. استغرق في تفكير عميق، مستحضرا حكاية هذه السفرية والإقدام على هذه التجربة المجازفة للأول مرّة في تجربته المهنية؛ وهي التغطية الصحفية الميدانية في منطقة حرب ضروس.. لكنه اختار برغبته خوض هذه المغامرة التي غالبا ما يرفضها باقي الصحفيين، لأن المنطقة جد خطيرة واحتمال البقاء على قيد الحياة هناك واحد على أربعة بلغة الرياضيات بمعنى أن الموت وارد في كل حين، فالصواريخ والقنابل تتساقط من الجو أكثر من قطرات المطر...

دخل جليل إلى مكتب مدير غرفة الأخبار الدولية بالقناة وهو يحمل داخل ملفه استدعاء المقابلة الشفوية التي ستتم أمام لجنة مكونة من صحفيين متخصصين في التحقيق والتغطية الصحفية الميدانية.. طلب منه رئيس اللجنة الجلوس ومناولته ديبلوم التخرج الصحفي ووثائق أخرى كما كان مطلوبا في الإعلان المنشور على موقع القناة ثم سأله:

- هل تتحدث اللغة التركية جيدا؟

أجاب جليل:

- لا أتقنها بشكل كامل ولكن أستطيع التواصل بها...

أحد أعضاء اللجنة:

- بالنسبة إلى اللغات الأجنبية كما هو مبين في ملخص السيرة الذاتية..!! تتحدث إلى جانب العربية بطبيعة الحال، الفرنسية والإنجليزية بشكل جيد..!!

رئيس اللجنة:

- سيد عبد الجليل صحراوي.. أنت تعلم جيدا طبيعة هذه المهمة..!! ستذهب إلى منطقة حرب، منطقة خطر..!! بمعنى أنك ستكون طيلة الوقت في مخيم يفتقد لشروط الحياة العادية: ستسكن في خيمة..!! ولن يكون هناك كهرباء..!! وستعيش مثل كل اللاجئين..!! ستشرب من مياه الصهاريج التي تستقدمها منظمات الإغاثة التركية والدولية وستكتفي بأغذية معلّبات..!!

يضيف آخر:

- سوف تعيش بمعية مرشد تركي يتحدث الكُردية والسورية ومصور تركي.. سوف تتنقّلون بين نقط حدودية ثانوية بين البلدين بدون ترخيص..!! طبعا.. لأن النظام السوري سحب اعتمادات جميع وكالات الأخبار بعد اندلاع الحرب مباشرة..!! وكما تعرف أن الرأي العام الخارجي توّاق إلى معرفة ما يجري في ساحة الحرب..!!

يضيف العضو الثالث:

- سيد صحراوي..!! تعلم أنّ المهمة شاقة وتتطلب صبرا ومهنية عالية..!! لن ينظر إليك من ستلتقي وتتحدث إليهم من أجل إنجاز تقارير صحفية، على أنّك صحفي تقوم بعمل نبيل لكشف حقيقة ما يجري في الميدان..!! وإنما ستكون في نظر الكثير منهم شخصا يمارس الجاسوسية..!! أنت مهدّد بالخطر من طرف الجميع وفي كل لحظة..!!

رئيس اللجنة:

- سيد عبد الجليل صحراوي..!! تعلم أن التأمين على الحياة غير معمول به في مؤسستنا الإعلامية..!! سيكون اتفاقنا محددا كما هو مبين في العقد: أجر شهري بمقدار 20.000 أورو، بالإضافة إلى التكفل الكامل بمصاريف التدخلات الطبية والنقل الجوي في حالة الإصابة أو الوفاة لا قدر

الله..!! ثم طبعا البند الأخير من العقد يحفظ لك حق فسخ العقد مع مؤسستنا متى شئت بعد الذهاب إلى الموقع..!! سوف يستقبلك مكتبنا بإسطنبول بعد الوصول ويقدّم كل التعاون بعد ذلك..!!

سكت الجميع بعد أن أبلغوه بنود العقد ثم الظروف العامة للمهمة الصحفية التي تنتظره في حال قبول العرض.. أبدى جليل اهتمامه للجنة القناة الإخبارية، معبّرا عن ولهه بتغطية الأحداث في الظروف القاسية والمناطق الخطرة، وهو ما يكسبه تميّزا أكثر في الوسط المهني، مؤكدا أنه علاوة على الأجر الشهري المغري جدا فهو يسعى إلى خوض تجربة 'مراسل حربي' وهي أعلى الأوسمة التي يمكن لأي صحفي أن يوشّح بها في مساره المهني...

سلّمه رئيس اللجنة عقد العمل وطلب منه توقيع الإمضاء ثم أخبره أن موعد السفر سيكون بعد يومين فقط، يستعدُّ خلالها لكي ينهي التزاماته العملية والاجتماعية في منطقة إقامته بفرنسا، كما أخبروه أنهم سينسقون معه في ما بعد بخصوص تذكرة الطائرة وزمان السفر من مطار دو بروفانس بمرسيليا القريب منه...

****

****

أفينيون، صباحا، خريف 2014...

الَارْضْ فْدَاَن رَبِي
والْخَلْقْ مَجْمُوع فِيهَا
عْزرْاَيلْ حَصَّادْ فْرِيدْ
مْطَامْرُه فَكُل جِهَة
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

العاشرة صباحا.. يرن جرس باب منزل العائلة بحي الأخت تريزا بضواحي أفينيون. تفتح شابة يافعة الباب.. كانت تقف سيدة أمام الباب وغير بعيد خلفها رجل يرافقها يحمل حقيبة في يده. ألقت الشابة التحية ثم بدأت تتحدث إليهما.. كان الحاج التهامي ممدّدا على الأريكة في الصالون المقابل للباب؛ لم يذهب إلى عمله منذ أسبوع، لأنه يعاني من وعكة صحية ألزمته الفراش.. كان يصل إلى مسمعه الحوار الدائر بين ابنته وبين من كان بالخارج:

السيدة:

- هل كان السيد عبد الجليل صحراوي يعيش هنا؟

الشابة:

- نعم..

السيد:

- هل أنت زوجته؟

الشابة:

- لا، إنه أخي...

السيدة:

- حسنا...

استدارت السيدة إلى الخلف وكأنها تقدّم لها الشخص الذي برفقتها، نظر إليها تاركا لها المجال لتتم الحديث عما أتيا من أجله. سألتها السيدة:

- هل يوجد الوالدين أو أحدهما في المنزل؟

الشابة:

- نعم يوجد أبي..!! لم يذهب إلى العمل لأنه مريض قليلا..!!

السيدة:

-أرجوك أنستي..!! نرغب التحدث إليه..؟؟

دخلت الشابة، مُودِعَة الباب مفتوحا في وجه الواقفين أمامه، فأبلغت والدها أن هناك من جاء يسأل عن جليل.. شعر الحاج بانقباض في قلبه عند سماعه هذا الكلام.. نهض بصعوبة من الأريكة ثم توجّه ناحية الباب.. ألقى التحيّة على الطارقين. طلبت منه السيدة:

- أرجوك سيدي نريد التحدث معك في مسألة مهمة ولكن ليس أمام الباب..!! هل يمكن أن نتحدث في الداخل..؟

شعر الحاج بنوع من الارتباك أكثر فأكثر.. فقد أفقده فزعه تركيزه، ولم يبادر بدعوتهما إلى الدخول بادئ الأمر.. قال مفسحا لهما الطريق:

- طبعا، هيا ادخلا..!! أرجوكما تفضلا..!!

جلسوا في الصالون.. توجّهت الشابة نحو التلفزيون الذي كان مُشغّلا على إحدى القنوات الخليجية الفضائية الإسلامية فأوقفته، ثم توجّهت صوب المطبخ للقيام بواجب الضيافة، تاركة والدها يتحدث على انفراد مع هذان الشخصان اللذان أثار مجيئهما وإصرارهما على التحدث معه

على انفراد في البيت قلقها وريبتها أيضا.. ابتدأت السيدة الحديث معه متسائلة:

- منذ متى غادر أبنك عبد الجليل المنزل؟

الوالد:

- أظن..!! منذ أبريل المنصرم...!!

السيدة:

- هل أخبركم أين ذهب؟

الوالد:

- نعم، أخبرنا أنه سيشتغل مراسلا لفائدة قناة تلفزيونية بالخارج...

السيدة:

- هل تعلم الدولة التي توجه إليها؟

الوالد:

- سمعته يتحدث مع أحد إخوته.. أخبره أنه سيذهب إلى تركيا!!

السيدة:

- لم يبق في تركيا بل توجّه بعدها إلى سورية...

الوالد:

- وماذا سيفعل في سورية هناك حرب ومخاطر؟

السيدة:

- للأسف الشديد هذا ما حدث..!! لقد غادر تركيا إلى سورية..!!

سكتت السيدة عن الكلام لهنيهة وهي تنظر في عيني الوالد المكلوم، ثم أضاف السيد إلى جانبها:

- نحن مبعوثان من مصلحة المغتربين الفرنسيين بوزارة الخارجية وقد أتينا لنبلغك...

سكت السيد عن الكلام للحظة ثم قالت السيدة:

- نحن متأسفان سيد صحراوي أن نبلغك أن ابنك عبد الجليل قد مات بسورية...

سقط الطبق الذي كانت تحمل الشابة بين يديها على الأرض وخرجت مندفعة من المطبخ تصيح وتصرخ، لأنها

كانت تتابع من مكانها كلام هذان الشخصان مع والدها.. وضع الوالد يديه فوق رأسه، ولم يستطع التلفظ بكلمة واحدة.. سكت الشخصان لبرهة من الزمن، مفسحين المجال للوالد وابنته أن يهدآن قليلا من وقع الصدمة عليهما، ثم أردفت السيدة بتأثر:

- نتأسف شديد الأسف إبلاغكما هذا الأمر!! أرجوكما اهدآ...

أضاف السيد:

- تعازينا الصادقة...

أضافت السيدة:

- سيصل جثمان ابنك إلى مطار دو بروفانس بعد الغد صباحا..!! يمكنكم أن تستلموه بعدها مباشرة..!! كما يمكنكم نقله في اليوم نفسه في أول رحلة إلى المغرب..!!

أخرج السيد من حقيبته بعض الوثائق وناول الوالد إيّاها مع قلم ثم قال له:

- أرجوك هذه بعض الوثائق التي يجب أن تمضي عليها..!! وقد أتينا بها إليك لنعفيك من مشقة التنقل إلى مقر الإدارة الجهوية..!!

قام المبعوثان من مكانهما بعد أن ودعا الوالد وابنته...

****

جنوب المغرب، بعد ثلاثة أيام...

عَيْطَتْ عِيْطَة حْنِينَة
فِيْقَتْ مَنْ كَان نَايْمْ
نَاضُوا قْلُوبْ المَحْنَة
ورَقْدُوا قْلُوب البْهَايمْ
من رباعيات: الصوفي عبد الرحمان المجدوب (1503م-1563م)

حركة دائبة أمام منزل العائلة بالقصر[1].. نساء ورجال يتوافدون على بيت العزاء.. عويل النساء يصل إلى أذان الرجال المتحلقين في جماعات خارج المنزل أو الجالسين على الحصير مسندين ظهورهم إلى جدران الطابية.. عشيرة وأقارب مولاي التهامي صحراوي على أهبة، مشمّرين على سواعدهم منذ الصبيحة، يأتون على عجل بأفرشة وحسائر وموائد وينصبون الخيِّام أمام ساحة البيت، ويحملون إلى الداخل أواني الطبخ كبيرة الحجم والمؤنة اللازمة لوضيمة العزاء التي سوف تمتد لثلاثة أيام بلياليها؛ فالعائلة معروفة

[1] - القصر: تجمع سكني، عبارة عن طراز معماري مغاربي يشيد بالتابوت (تراب) في البلاد الحارة الصحراوية، يكون على شكل قصر ملكي أو سلطاني، محاط بسور سميك وعال تتوزع عليه أبراج في أركانه وزوياه وتتخلله بوابة واحدة مقوسة الشكل يدخل ويخرج منها جميع سكان القصر.

على امتداد الواحات المجاورة وبلا شك، سيقدم المعزون بعدد غفير لتقديم واجب العزاء للعائلة والعشيرة...

تخرج لالّة شمس الضحى المرأة الطاعنة في السن متكئة على عكازها إلى أمام بوابة الدار المقوّسة، وقد بدت خصلات شعرها الأدهم من تحت السبنية الحمراء، ما تزال تشعّ بعينيها الغائرتين الزقاوين حيوية ومكابرة، وقد صمدت بشرتها الشقراء أيضا في وجه التجاعيد، إنها فعلا تحمل في ذاتها بركة العَشَرة وبركة الأولياء الصالحين.. لم تكن تبكي كما تفعل قريبات الفقيد في سقيفة الدار، فمثل هاته النسوة المعمرات؛ قد جفّت الدموع بعيونهن منذ أمد بعيد، إنها تعلم أكثر من غيرها هنا، معنى الحياة التي لابد أن تنتهي بأجل مؤجل...

وقفت العجوز أمام البوابة وقد شاهدها من كان ينتظر وصول الجثمان لتشييع الجنازة، كما أخبرهم عمّ الفقيد.. حجَّ كل من كان في المكان لتقديم العزاء للشريفة المباركة في حفيدها المتوفى، والتفوا حولها يقبلون يديها ومنهم من اكتفى بتقبيل عصاها وهي تشير بيدها التي برزت بها عروق زرقاء.. أخذت سطلا صغيرا به ماء ثم بدأت تدخل كفها فيه وترش أمام البيت، بعدها شرعت تزغرد بصوت

خفيض لا تكاد زغاريدها تصل إلى مسامع من حولها، لأنها تنبعث من حنجرة بحَّتها نوائب الدهر وفم غابت أسنانه منذ عقود.. قالت وكأنها تنعي حفيدها للحاضرين:

- مات الغالي..!! سيدي عبد الجليل..!! مات فالحج..!!

يهمس شخص في أذن شخص آخر من أبناء عمومتهم:

- أش قالت لالة شمس الضحى؟

يجيبه الآخر هامسا في أذنه:

- مابغاوش يقولو فين مات..!! قالو مات في العمرة!!

يجيبه نفس الشخص وهما يتناجيان بعيدا عن جموع المنتظرين لتشييع الجنازة، وقد بلغ إلى علمهما معا مكان وتفاصيل وفاة ابن عمومتهم:

- مارضاوش يقولو مات مع صحاب الإرهاب!!

يقترب أحد المعزّين صوبهما لتقديم العزاء.. يسكتا قليلا بعد أن ردا كلمات وتعابير المواساة:

- ما مشى معك باس.. الله يعشر الخطوات..

تحرّكا في اتجاه الدار، مبتعدين قليلا عن الشخص المعزي الذي توقّف عن التنقل بين الحاضرين لتقديم العزاء، فانضم إلى حلقتهم.. تظاهرا بالذهاب للإتيان بشيء من الداخل وهما ينظران إلى الوافدين وقد يقومان بالتدخّل متى لزم الأمر لنشر حصير أو الإتيان بماء الشرب للمنتظرين أو غيره.. يسأله مرة ثانية:

- واقيلا هذا المسخوط كان مع داعش؟

يكتم الثاني ضحكته، ثم يعلّق على ما سمع منه:

- والله أنت ما يسخن لك ماء الغسيل نهار تموت..!!

يباغته الضحك هذه المرّة فلم يستطع ردّه.. يسترسل الثاني حازما في كلامه:

-كان مراسل صحفي فسوريا..!! وتفرقعت بهم 4×4 اللي كان فيها مع ليكيب ديالو..!! هذا ما قالو والله أعلم..!!

تلوِّح زوجة أحد المتناجيين وهي مشتملة بإيزار أسود من البوابة وتشير إليه بيدها. توقّف عن الكلام ثم اتجه نحوها، ناولته طبقين مصنوعين من ألياف سعف جريد النخيل وقد ملئ الأول بالتمر الفقوس والثاني برقاق الرغيف الساخن.. ظهرت لالة شمس الضحى مرة ثانية من وراء المرأة

الشابة، فطلبت منه بعد أن خرجت وجلست بتوهُّن متكئة على عصاها على "الدكانة" الملتصقة بحائط الدار، أن يقدِّم الطعام للمشيِّعين بعد أن يفرغوا من دفن الجنازة.. حمل الطبقين بيديه ثم اتجه صوب قرينه فناوله أحدهما ومسك بالثاني وبقيا واقفين على مقربة...

فجأة، انتبها معا إلى سيارة نقل الأموات الآتية مباشرة في اتجاه المنزل.. توقّفت السيّارة ثم نزل مولاي التهامي وهو يعتصر ما تبقى من دموع في غدته.. تلتف به الحشود الغفيرة المنتظرة حضور وتشييع الجنازة.. تعالت أصواتهم وتداخلت بتعابير التعزية والمواساة.. انطلق موكب الجنازة في اتجاه المقبرة:

-لا إله إلا الله محمد رسول الله... لا إله إلا الله محمد رسول الله...

* * *

موسم العودة من الشمـــال

محطة شارل دوغول، وداعا باريس...

ستنطلق رحلة العودة إلى مرسيليا بعد أقل من ساعة من الآن. جرَّ جليل حقيبته وجلس على المقاعد الجانبية للرصيف الذي سيتوقف به القطار.. لاحظ أن المحطة بها عناصر ببدلات عسكرية يحملون بنادق كلاشينكوف الحربية ويمرون بمحاذاته وفي المحطة ذهابا وإيابا.. بعدها بدأت عناصر المخبرين السرّيين يتناوبون على الجلوس بمحاذاته وكانوا من فئة عمرية تفوق سن الستين بل منهم من تجاوز سن التقاعد ولكن الجهاز لم يستغن عنهم ربما لأنهم راكموا تجارب طويلة في هذه المهنة.. لم ينزعج من تصرفاتهم وقد حافظ على هدوئه وتصالحه الداخلي مع نفسه و فوّض أمره إلى اللّه وينتظر تطور أطوار المطاردة...

أفينيون، صباحا، خريف ٢٠١٤...

... سكت الشخصان لبرهة من الزمن، مفسحين المجال للوالد وابنته أن يهدآن قليلًا من وقع الصدمة عليهما، ثم أردفت السيدة بتأثر:

- نتأسف شديد الأسف إبلاغكما هذا الأمر!! أرجوكما اهدآ...

أضاف السيد:

- تعازينا الصادقة...

أضافت السيدة:

- سيصل جثمان ابنك إلى مطار دو بروفانس بعد الغد صباحا..!! يمكنكم أن تستلموه بعدها مباشرة..!! كما يمكنكم نقله في اليوم نفسه في أول رحلة إلى المغرب..!!

أخرج السيد من حقيبته بعض الوثائق وناول الوالد إيّاها مع قلم ثم قال له:

- أرجوك هذه بعض الوثائق التي يجب أن تمضي عليها..!! وقد أتينا بها إليك لنعفيك من مشقة التنقل إلى مقر الإدارة الجهوية..!! قام المبعوثان من مكانهما بعد أن ودعا الوالد وابنته...

تابعنــــا :

متوفر على:

amazon kindle

PARADISE

PDF All PDF Reade